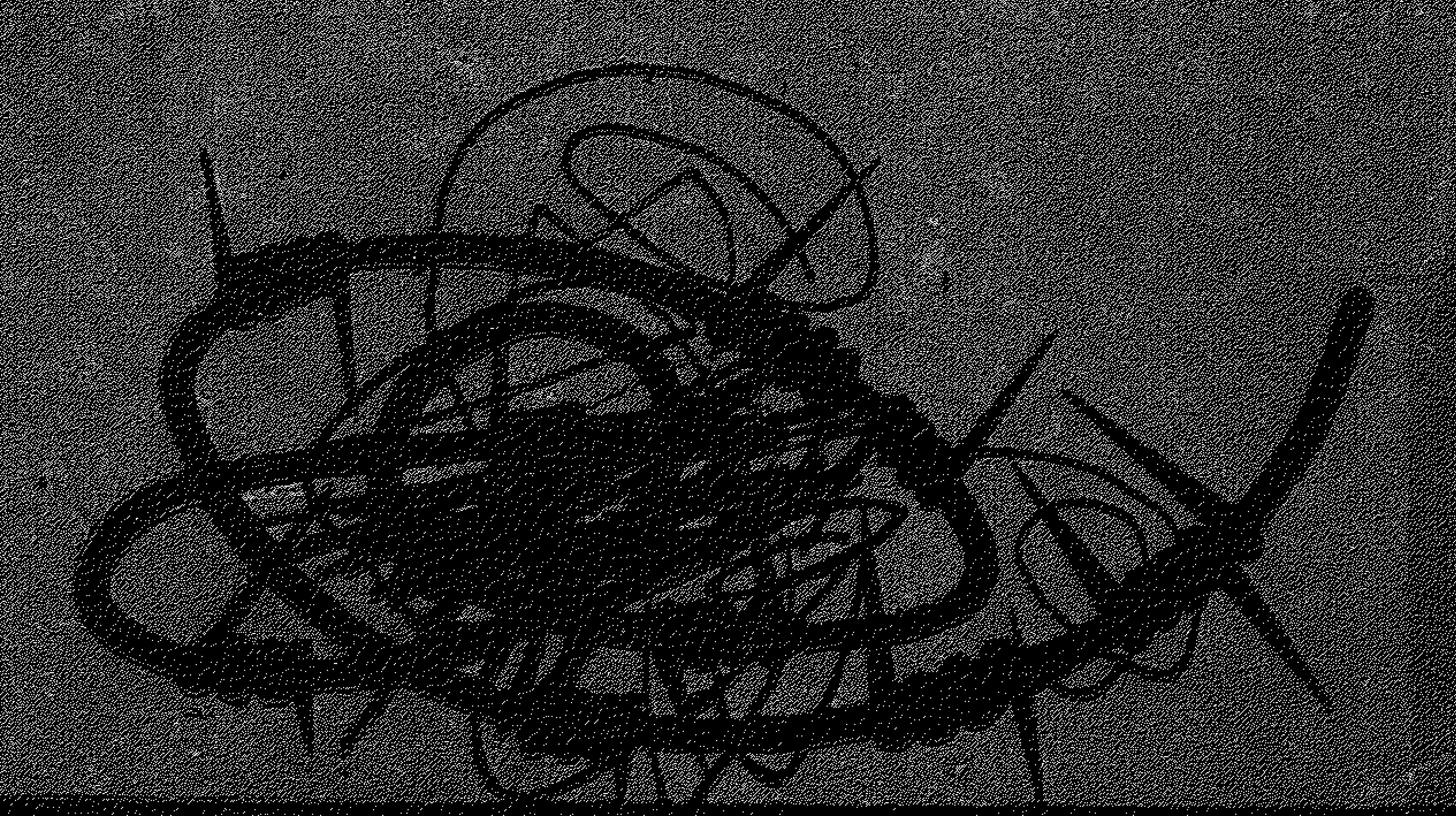
في معتقل أبو زعبل

إلهام سيف النصر



الهام سيف النصر

في معتقل ابو زعبل

دار الثقافة الجديدة

فى معتقل أبو زعبل
الطبعة الثانية — ١٩٧٧
الناشر دار الثقافة الجديدة
٣٢ شارع صبرى أبوعلم
ت : ٥٨٧٨٠ — ٥٨٤٧١
الغلاف للفنان : سعد عبد الوهاب

الاهـــداء

الى الشهداء

محمد عثمان

شهدي عطية الشافعي

الدكتور فريد حداد

رشدي خليل

لويس اسحق

الذين لولا صمودهم لما قدر لهذه القصة ان تكتب

التشريفة

— ١ —

عندما وقفت بنا السيارات أخيراً ، لم يحدث أى شىء لفترة طويلة .

فى البداية مرت دقائق الانتظار متوترة ثقيلة . ننتظر أن يفتح الحارس الباب ، ونخرج من ذلك القفص الحديدى المحكم الذى كدنا فيه نختنق . ثم والباب مازال مغلقاً ، لا حس ولا حركة ، نتبادل نظرات العجب والقلق ونستسلم للعرق الذى غمر أجسادنا .

.. ثم وأخيراً وقد تراكمت الدقائق وامتدت لحوالى الساعة ، يبدأ عدم الفهم يتحول إلى انزعاج ، ونحن نحس بأن شيئاً يحدث فى الخارج .

وكان من المستحيل أن تمتد أبصارنا خارج السيارات . فكل واحدة من السيارات الثلاث كانت مقفلة تماما ، كعلبة سردين ،

أو كصندوق خشبي كبير مصفح برقائق من الحديد ، ليس فيه من فجوة سوى الباب المصفح هو الآخر والذى دخلنا منه • والذى أقفل خلفنا بمتراس حـديدى عندما دخلنا منه ، منذ عدة ساعات ، سمعنا صوته وهو ينزلج بقطع ما بيننا وبين الحياة من حولنا فى الخارج ، ولا يتسرب منـه إلا صوت الحـارس المسلح الذى وقف يحرسه من الناحية الأخرى .

... وكنا وقوفاً . الستون معتقلا موزعين فى السيارات الثلاث بالتساوى ... معهم أمتعتهم التى زاحمت المـكان بكثرتها وقد تجمعت خلال الشهور الطويلة السابقة . والتى عاشت الرحلة تحمل من كل مكان ذكرى ... بعض الرمال من صحراء الواحات ، وكثـير من البق والقمل من سجون عديدة حلت بها ، آخرها سجن الحضرة بالاسكندرية .

... كنا وقوفاً . نـكاد نختنق من الحرارة رغم أن الشهر كان نوفمبر . نتزاحم ، المنـكب فى المنـكب ، والمعصم مشدود إلى المعصم فى حلقات حديدية ثقيلة ، كل حلقة تـ[illegible]م معصمى رجلين وتضم أيضاً جنزيراً حديدياً ضخماً سميكا وطويلا ، يربط كل عشرين منا بطريقة

تذكر بقوافل العبيد ، عندما كانت فى الدنيا تجارة العبيد ... رغم أن السنة كانت فى القرن العشرين ، سنة ١٩٥٩ .

... يكفى أن يرفع واحد منا يده ليمسح عرقه حتى ترتفع الأيدى كلها معه وتئن السلسلة وتزمجر . ويكفى أن يخطىء واحد وهو يحرك يده ليلتوى المعصم ويتورم ومعه يتورم معصم زميله ليسرى الألم معربداً لا حل لإسكاته ، وليعجزان عن الحركة .

. . . ومع الانتظار بدأ الإنهاك يحفر بصماته على تلك الوجوه الشاحبة الباهتة التى لم تصافح الشمس شهوراً عديدة . مع الانتظار تقصد العرق ليتجمع على الجباه ، ويتبخر يحمل فى ثناياه رائحة الأجساد المتربة المتعبة ، والصابون الرخيص ، والأحشاء التى عاشت على طعام يسمى « اليمك » هو مزيج من فول خاص حباته كبيرة ومليئة بالسوس ، غارق فى زيوت داكنة اللون لاذعة المذاق — ذلك عندما يفتح السجن فى الصباح — ووجبة أخرى من سوائل لا طعم لها ولا مذاق ، كانت فى الأصل ألياقاً وعروقاً ودهوناً وشحوماً لخليط من مواد نباتية وحيوانية ، على سطحها تعوم قطعة من لحم خشن ، وذلك قبل أن يقفل السجن عند الغروب .

... ولكن الإنهاك تبـــدد فجأة ، تتنبه العقول ، وتتوتر العضلات ، ويندفع الدم فى العروق ومعها دقات القلب تتصاعد ، عندما طرقت أسماعنا من بعيد عدة أصوات ، لعـدة أشياء ، بعض الأوامر تصدر فى حدة ، ... صهيل لعـدد من الخيل ، ... همهمات ووقع أقدام لا يمكن إلا أن يأتى بها عديد كبير من الرجال .

ثم . . دوت طلقة نارية ، اخترقت جدار الصمت تعوى ثوانى ثم تندثر ، ليطبق بعدها سكون محشود بالتوتر ، ولتعقبه عيوننا كلها تتجه صوب الباب ، الذى سمعنا من خلفه الترباس الحديدى ينزلق ويتحرك يتحشرج ...

وغمر ضوء النهار السيارة ، ألمح « مسعود » السجان المكلف بحراسة سيارتنا ، يرقبنا لحظة ثم يتقدم يفتح القفل الحديدى الكبير الذى يقبض بفكه عن نهاية الجنزير الحديدى ، ويفك فى ضجة من رنين الحديد ، قيودنا واحداً بعد الآخر .

.. عند مااقترب منى «مسعود» التقى بصره ببصرى ، ودون كلمة ، وأنا ألمح ذلك الحزن اليائس الذى يقبع فى عينيه ، وسحابة

صفراء باهتة تسكن تحت جلد وجهه الوسيم الأسمر ، كنت أدرك أن شيئاً بشعاً كريهاً يسكن فى الخارج ينتظرنا .

شيئاً لاشك أقسى من تجاربنا السابقة القاسية .

فلقد كان « مسعود » صديقاً لى . وكان وجهه فى تلك اللحظة ينبئنى بأن تجربة جديدة وخطيرة قد أعدت لنا .

هكذا حدثتنى عيناه ، وأنبأنى حزنه ... وحش مسعور فى الخارج ينتظر !

.. فى دقائق كانت القيود قد فكت ، وكان « مسعود » ينسحب بعد أن أشار إلى أقرب اثنين من الباب ، يأمرهما بالخروج .

وأخرجا ... ليقفل علينا الباب من جديد .

... اخرجا ... الدكتور إسماعيل صبرى عبدالله الأستاذ بجامعة الاسكندرية وأمين شرف العامل بعنابر السكة الحديد .

وعندما خرجا ، أغلق الباب ، ولكن السكون تبدد لنسمع

ضجة غريبة تدوى أصداؤها مليئة بأصوات متنافرة متعددة .

... كانت « التشريفة » قد بدأت !

... فى تلك اللحظة « والتشريفة » تبدأ تطبق بأنيابها الدموية على أول رفيقين ، لم نكن ندرى أن اسمها هكذا ، ولم نكن نعلم ماهيتها بالضبط .

بعد ذلك بعدة ساعات ، كنا ندرى وكنا نعلم .

وكان تاريخ مصر يسجل حدثاً فريداً فى وحشيته وقسوته ، وأيضاً فى غدره .

... حدث بدأ فى ذلك اليوم ، ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، وحوالى العاشرة صباحاً ، ولم ينته إلا بعد ذلك بشهور طويلة .

فى الأيام الأخيرة من شهر يونيو عام ١٩٦٠ ، وبعد أن سالت دماء كثيرة ، وزهقت أرواح شهداء .

.. لم يتوقف هذ الحدث إلا بعد مقتل آخر شهيد من شهداء « أبو زعبل » . . شهدى عطية الشافعى الكاتب السياسى ،

والمناضل الوطنى الذى بدأ نضاله من أجل مصر والاشتراكية منذ الأربعينات .

لا أعتقد أن ذلك التاريخ — ٨ نوفمبر ١٩٥٩ — ، وأن « التشريفة » ، وقصة أيام أبو زعبل كاملة لا أعتقد أن ذلك كله يمكن أن يفهم ويدرك سببه ، دون ذكر البداية التى بدأت قبل ذلك بشهور وعلى وجه التحديد من فجر يوم أول يناير عام ١٩٥٩ .

فتلك الأيام ، نهاية ديسمبر ١٩٥٨ وحتى أول يناير ، كانت أياماً مثيرة ترسم علامات صراعات عميقة ، قد لا يكون هذا المجال هو المكان لذكرها وتفسيرها .

لكن الذى يذكر أنه فى فجر أول يناير كانت مصر تشهد من أقصاها إلى أدناها حملة بوليسية واسعة بدأت بالقبض على العشرات ثم وبمضى الأيام وصل العدد إلى عدة مئات وتعدى الألف بكثير ، وبتهمة « النشاط الشيوعى » .

سبقت الحملة البوليسية المفاجئة ، حملة صحفية شرسة ضارية ،

كانت قمتها عدة مقالات مباشرة رفع فيها شعار « أن توضع أقفال من حديد » فى شفاه الشيوعيين .

كما أن الذى يذكر ، والتاريخ ليس ملكا إلا للشعب المصرى وحده . أن هـذه الحالة لم تضع فقط تلك الأقفال الحديدية فى الشفاه لتجبرها على الصمت ، وإنما أيضاً تميزت بدمويتها .

.. فمنذ اللحظة الأولى سقط شهيد هو فرج الله الحلو الشيوعى العربى المعروف بعد خطفه من لبنان وتعذيبه فى سجن المزة بسوريا حتى استشهد ... وخلالها سقط عـــدة شهداء آخرين قتلى من التعذيب أيضاً سواء فى دار المباحث العامة أو فى أبو زعبل .. وأن لحظتها الأخـيرة بعد ذلك بعـدة سنوات وفى نهـاية عام ١٩٦٣ ، كانت دامية أيضاً ، حتى وبعد إعـلان العفو الشامل وصدور قرار الإفراج عن كل المعتقلين الشيوعيـين .. . كالمـأساة الأغريقيـة والستار يسدل على الفـترة السوداء ، كان شهيد أخـير يسقط هـــذه المرة وبالرصاص فى معتقل الواحات وكان لويس إسحق .

... تاريخ تلك الأيام ، أيام الاعتقال والهجمة اليمينية الرجعية

يمكن أن ترسم وتسجل خطاً بيانياً يزداد شـدة وقسوة وسوءاً ودموية . ذروته أيام « الأوردى » بليمان أبوزعبل . « الأوردى » ذلك الليمان الصغير والذى يعـد ملحقاً لليمان أبو زعبل والذى يتسع لعدة مئات .

... وقـد كان من حظى أن أعيش ذلك الخط البيانى من لحظته الأولى .

ففى أول يناير ، وعلى وجه الدقة حوالى الساعة التاسعة صباحاً ، كنت فى طريقى مقبوضاً على إلى مقر المبـاحث العـامة بالقاهرة ، وبعد محاولة هرب لم تمنحنى سوى عـدة ساعات من الحرية ، انتهت لأجـد نفسى فى سيارة ملاكى تابعة للمباحث ومعى ضابطان وعدة مخبرين ...

ولم تـكن هـذه المرة ، هى المرة الأولى التى يقبض فيها على . فقبل ذلك وعلى مدى سنوات بلغت العشرين تقريباً ، كنت قد دخلت السجون عدة مرات .

مرتين فى عهد فاروق . ومرة ثالثة وفى عام ١٩٥٦ بتهمة الشيوعية أيضاً .

خلال تلك المرات كنت قــــد حللت وشاهدت العديد من سجون مصر : سجن الاستئناف ، وسجن مصر ، وأصلاحية الرجال بالقناطر ، ومعتقل ها كستب بصحراء مصر الجديدة ... وحتى سجن الأجانب قبل أن يهدم كنت قد حللت به مرتين على التوالى .

وكل هذه المرات كنت أخرج من السجن وفى نفسى مقت شديد لها وكراهية عميقة للنظام الذى يسودها . مقت للساعات الطويلة التى لاتنتهى والتى فيهــــا الإنسان يتحول إلى حيوان حبيس قد أهدرت فيه وامتهنت أثمن مافى حياة الإنسان وهى حريته . ولماذا ؟! . . . لأنه يدافع عن هذه الحرية ويذود عن كرامتها .

... كنت أخرج فى كل مره ، وجوانحى كلها كراهية لتلك القواعد التى تحكم حياة النزلاء والتى تتلخص فى كلمات ثلاث :

القسوة ، واللاأخلاقية ، وسطوة المـال .

فالسجن فى حقيقته وجوهره ، . . . فى النهاية ماهو إلا صورة مشوهة وعارية وحادة للمجتمع إذا ما كان فاسداً .

بالمـال تشترى كل شيء تقريباً حتى تـكاد تتخطى الأسوار . بخمسـة جنيهات يحولك طبيب السجن إلى مستشفى خارجى لتتمتع ببعض الحرية . . . وبعشرة جنيهات تستطيع أن تهرب أى ممنوعات ابتداء من الويسكى حتى الحشيش ... وجنيه واحد يترك سجان العنبر باب غرفتك أو زنزانتك مفتوحاً طيلة النهار ... وبعدة مئات من الجنيهات تستطيع أن تنال عفواً صحياً . . . أو يقرر الطبيب المختص بالعقول أنك مجنون لتحـال لمستشفى الأمراض العقليـة . الخطوة الأولى قبل الإفراج .

كلها قواعد يحكمها المـال . سرت ومازالت تسرى . لااستثناء لها إلا المعتقل السياسى .

... أما القسوة فهى القاعدة التى تطبق على الضعيف ، والضعيف هو من لا يملك المـال ، وأيضاً وعادة الضحية اللا أخلاقيـة ، تلك

القاعدة التى تحـكم كل سجن ، أن تـكذب وأن تسرق وأن تبلغ إدارة السجن على زملائك .

تلك القاعدة التى تسمح بانتهاك أعراض الرجال وتسريح الغلمان وصغار السن فى عمليـة دعارة شاذة والتى تقبـل أن يموت مسجون أحياناً قتيلا وهو يدافع عن عرضه ولا من شاهد أو سمع .

لست أريد أن أستطرد فى هذا المجال ، والقصة حكاية أخرى ، موضوعها نفر آخر ، لـكن يكفينى أن أذكر أن سجن مصر وخلال تفتيش مفاجىء عادى لزنازين نزلائه ، عاش تجربة غريبة تماما .

فقد عثر الضابط الذى كان يقوم بالتفتيش وبمحض الصدفة وفى إحدى الزنازين على مطبعة سرية لتزييف النقود .

وبعدها اكتشفت أن التزييف يتم فى داخل السجن وأن ترويج النقود المزيفة يتم فى الخارج من خـلال الزيارات وأيضاً بواسطة بعض السجانة .

يكفينى أن أذكر أن فى مزرعة « طرة » يزرع الحشيش ، وأن مخزون المخدرات فى السجون بلغ عدة عشرات من الألوف النقدية ، وأن أحـد السجنـاء فى سجن مصر ، وكما شاهـــــدت بعينى

كان يعيش حياة غريبة . . . ، فغرفته بها ثلاجة مليئة دائما بالكوكا كولا والبيرة ، وبها مرحاض خاص و « بيديه » ودش . ويومه خارج السجن دائما حيث تأتى سيارة مصلحة السجون لنقله يوميا إلى مقر المصلحة بحجة أنه رئيس تحرير مجلة السجون . وكلمته داخل السجن لاتقل عن كلمة المأمور .

وكانت الشائعة تدور حول سيارة « كاديلاك » أهداها فيما أهدى ، للواء رئيس مصلحة السجون فى فترة ما .

. . . كل هذا موضوع آخر ، ولكنى وان كنت قد قصدت الإشارة إليه ، فانما لسبب يتصل بهذه الحكاية ، حكاية أبو زعبل

ففى يوم أول يناير عام ١٩٥٩ ، وعندما وصلت إلى مقر المباحث العامة كغيرى ممن قبض عليهم فى فجر ذلك اليوم نفسه ، كنا ندرك أننا سندخل هذه الدنيا ، دنيا السجون بقواعدها المقيتة .

ولكننا كنا مخطئين .. فلم نكن ندرى أننا سندخل دنيا أشد مقتا وبشاعة ، وأكثر سوادا . دنيا ، هى جرح فى وجه مصر الحديثة وحضارتها وكرامتها .

... وبما أن فضح الجريمة وكشف خيوطها وأركانها هو الأسلوب الوحيد لمنع تكرارها . بما أن ذلك الجرح وحتى يلتئم ... حتى لا يدمى من جديد ، يستوجب تشخيصه وقصة حدوثه . من أجل ألا يحدث ما قد حدث ، بعد ذلك قط ، ولا يعاد .

فانى أكتب هذه الكلمات وأحكى القصة كما حدثت بالفعل .

* * *

... ظللنا فى المباحث العامــة نهاراً كاملا وليـلة متصلة ، ليبدأ التحقيق أخيرا وفى فجر اليوم التالى .

ولم يكن هذا أسلوبا غريبا على المباحث العامة ، وخضوع النيابة لهذا الأسلوب .

فقبل ذلك وفى عام ١٩٥٦ قضيت أنا والدكتور ابراهيم سعد الدين ستة أيام كاملة نجلس على كرسيين من الخشب ، عليهما ننام ونأكل وننتظر ، حتى بدأ التحقيق أخيرا بواسطة النيابة .

. . . على أى حال ، ففى فجر اليوم التالى ، بدأ تحقيق النيابة

العامة — نيابة أمن الدولة — بواسطة على نور الدين رئيس النيابة أمن الدولة حينذاك .

وأذكر أن أول مجموعة تم التحقيق معها كنت أحد أفرادها إلى جانب الدكتور فؤاد مرسى الأستاذ بجامعة الاسكندرية ، ومحمد سيدأحمد المهندس والمحامى أيضا ، ومحمودأمين العالم المثقف المعروف وسعد زهران أستاذ الرياضيات والدكتور عبد العظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة .

وكان التحقيق إلى حد كبير شكليا . كما كان استفزازيا . شكليا لأن الهدف فى تلك الليلة كان الاعتقال أساسا قبل التفكير فى أية محاكمة . واستفزازيا لأن هذا هو اختصاص على نور الدين الذى فيه برع من أيام فاروق حتى استغنى عن خدماته أخيرا بعد الفضائح التى لصقت به خلال أزمة مايو ١٩٧١ ، والتى أقل ماتوصف به — أى فضائحه — استعداده لأن يخدم أى سيد يدفع بدل أن يخدم القانون الذى هو أحد رجاله .

. . . لذلك انتهى التحقيق سريعا ، لتوضع القيود الحديدية فى

معاصمنا ، ولتحملنا سيارة كبيرة تحت حراسة مشددة إلى حيث ذهب زملاؤنا من قبل . وكان المكان معتقل القلعة الذى كنا ندخله لأول مرة .

وربما كانت أحلى أيام الاعتقال ، إذا جاز أن تكون هناك حلاوة فى الاعتقال ، فى ذلك المعتقل الذى يربض داخل القلعة ذاتها .

.. وكان بناء غريبا ، ومزيجا من الماضى والحاضر .

فجزء منه فوق سطح الأرض ، حديث ومكون من زنازين متلاصقة بكل زنزانة سرير نظيف . وجزء آخر تحت الأرض ، بعضه زنازين قديمة من عهد الاستعمار الانجليزى تحمل طابع القدم وقسوة الماضى . فلكل زنزانة بابان واحد خشبى ، وآخر خارجى مكون من قضبان حديدية ضخمة . وفى كل زنزانة فجوة أو كوة ربما كانت تستخدم فى ادخال الطعام إلى السجين دون الاضطرار إلى فتح باب الزنزانة .

وكما أن جزءا من المعتقل ، كان يتكون من عنابر ضخمة تتسع

لعشرات الأفراد ، حكى لنا بعض الحراس أنها من عهد محمد على وأنها كانت تستخدم فى التعذيب

ولكن معتقل القلعة وفى أيامه الأولى ، لم تستغل ميزاته فى أى نوع من التعذيب ، على العكس تمتعنا بحرية نسبية تمثلت فى بقاء معظم أبواب الزنازين مفتوحة نهارا وليلا وباستطاعتنا التنقل والتحرك والسير داخل المعتقل ٠

على وجه الدقة ، كان الشيئان اللذان حرمنا منهما ، هما زيارات الأهل ، والطعام من الخارج وربما كان السبب فى هذه الحرية النسبية وتلك الأيام الرائقة الهادئة ، أن إعتقالنا كان ما زال جديدا ، لم تنظم بعد كل قواعده ، وأن مرحلة ثانية فى الإعتقال كانت تحضر فى الخفاء . كما أنى أعتقد ان هناك سببا آخر فى ابقائنا تلك الفترة التى امتدت حوالى الشهرين والنصف وبهذا الوصف فى معتقل القلعة .

وتركز هذا السبب فى ان معتقل القلعة كان اكثر المعتقلات خضوعا مباشرا للمباحث العامة . وكانت المباحث العامة فى اشد

الحاجة لاستكمال قوائم الاعتقال الجديدة ، التى تمت بالفعل خلال الشهور التالية وكانت إحدى وسائل استكمال هذه القوائم ، هى مراقبة وضبط الخطابات والرسائل بين المعتقلين فى القلعة والخارج .

وبالفعل تم ضبط العديد من الخطابات والعناوين ، وسقط أكثر من جندى حراسة وفى جيبه عشرات الأسماء التى طلب المعتقلون الاتصال بهم .

كان منا تهاوناً وسوء تقدير ، استغلته المباحث العامة فى ذكاء كامل ، ولذا وعندما انتهى الغرض من معتقل القلعة ، كنا نفاجأ ذات ليلة بقطع التيار الكهربائى عن المعتقل ، واقتحام حرس مسلح الزنازين ، لنخرج تحت حراسة مشددة ، لتوضع الحلقات الحديدية والجنازير فى معاصمنا ولأول مرة ، ثم لنسحب بعد ذلك داخل سيارات مغطاة بقماش سميك حملتنا حتى محطة الجيزة .

ثم ولنودع والحقيقة تتسلل قاسية إلى عقولنا ، فى قطار فريد من نوعه ، هو فى النهاية عنبر سجن بنوافذ حديدية وليتجه نحو المكان الذى استنتجنا مقدما اسمه ومكانه معتقل الواحات الخارجة ، بالمحاريق .

... كان الليـل سائداً والمحطة محشودة بالجنود المسلحـين ، خالية من أى مدنى عادى ، عندما تحرك بنا القطار أخيراً ، لتدوى أصواتنا تودع القـاهرة وهى تغنى أغنيتنا المفضـلة « بلادى . . . بلادى » .

... ولم نـكن نغنى فقط تحدياً للارهاب الذى أحاط بنا من كل جانب ، وإنما أيضاً لسبب آخر .

كنا نعلم أن أهلنا وأقاربنا وأطفالنا ، حول المحطة يحتشدون . . وكنا نريد أن نقول لهم ... نحن بخير ، ونحن أيضاً صامدون .

... بعدها بعدة شهور طويلة ، وعندما سمح بالزيارات أخيراً خلال محاكمتنا بالاسكندرية ، كانت إحدى الذكريات التى سمعناها من أفواه أولئك الذين تعذبوا أيضاً وصمدوا فى وجه الظروف العاتية المدمرة يحمرن حياتنا بالاحتجاج والإصرار وفضح ما يحدث من إرهاب كانت إحدى الذكريات التى سمعناها من أفواه الأحباء ، كيف تتبعوا رجال المباحث فى تلك الليلة بالسيارات والتاكسيات حتى اكتشفوا ساعة ترحيلنا من الجيزة .

وكيف ظلوا الساعات الطوال حول المحطة وفى أيديهم أطعمة أحضروها لنا للرحلة الطويلة ، ليعودوا بها حسارى ، والحرس المسلح يمنعهم بإرهاب السلاح أن يتصلوا بنا .

... كانت إحدى الذكريات ، تلك الليلة ، التى ظلوا فيها وقوفاً حتى رحل القطار وأصواتنا تغنى لمصر .

وكانت أيضاً إحدى الذكريات ، ذلك العدد من زوجات بعض الرفاق ، اللاتى دفعتهن اللهفة لنظرة واحدة ، أن يركبن قطار الصعيد حتى الاقصر على أمل أن يلحقن بنا فى محطة « المواصلة » ، تلك المحطة التى فيها ركبنا قطاراً آخر حملنا صوب الواحات .

... أمـل لم يتحقق ، فقبـل سوهـج كانت كل القطارات تقف بأمر المباحث العامة ولا تتحرك إلا بعد أن كنا فعلا فى بطن الصحراء .

* * *

فى تلك الرحلة ولأول مرة أحسسنا بمعاملة جديدة تماماً .

لقد ظلت القيود الحديدية الثقيلة فى أيدينا ، والجنزير الضخم الطويل يربطنا جميعاً ، حتى وصلنا الواحات .

أكثر من عشرين ساعة قضيناها فى القطار الأول ، ثم فى قطار الواحات الصغير الذى ركبناه من المواصلة بالقرب من سوهاج ، ليخترق الصحراء صوب الواحات ، وتلك القيود الثقيلة تدمى معاصمنا لتتورم وتحتقن وليغمى على البعض من الألم دون استجابة من الحراس أو الضباط .

أكثر من عشرين ساعة دون ماء أو طعام حتى وصلنا ساعة الغروب المحاريق أو معتقل الواحات .

كان بناء صغيراً من طابق واحد وسط صحراء لايحدها بصر .

كان أيضاً أول استقبال لنا يعده ويحضره بنفسه ، اللواء إسماعيل همت وكيل مصلحة السجون .

وكان هذه المرة ، استقبالا سينمائيا طنانا . فقد سرنا بين مدافع رشاشة مصوبة إلى صـــدورنا وصيحات وأوامر حادة . ليتفحصنا همت ، واحدا واحدا ونحن نمر من أمامه ويعلق على كل واحـــد التعليق المناسب .

أحيانا سخرية وأحيانا أمر حاد وأحيانا وعيد . لنجتمع في النهاية فى زنازين واسعة بأبواب خشبية عادية ، لولا فجوة من قضبان حديدية بها لـكانت تصلح أبوابا بالمنازل عادية .

فسجن الواحات يمتاز أنه السجن الوحيد فى مصر الذى لا يتطلب حراسة شديدة أو خاصة .

فببساطة ، على أى سجين يفـكر فى الهرب ، عليه أن يفـكر أيضاً كيف يستطيع أن يقطع عدة مئات من الـكيلومترات فى صحراء مقفرة ليس فيها زرع أو ضرع أو ماء حتى يصل إلى وادى النيل . وفى تاريخ سجن الواحات لم يستطع أن يهرب سجين سياسى واحد ، سوى معتقل شيوعى فقط ، لا أحد حتى الآن يعرف سر هربه . وإن كان الاحتمال الوحيد أن أسرته وهى أسرة غنية ثرية استطاعت أن

تدبر له طائرة صغيرة وخاصة حملته خارج مصر .

وفى سجن الواحات أيضا استطعنا أن ننتفع بالميزة الثانية ، والغريب أنها ميزة بعد هذا المعتقل عن القاهرة وعن المدينة .

فهذا البعد ، فرض على الحراس بما فيهم الضباط أن يقبلوا نوعا من الحياة فيه التعايش مع السجناء .

فالسجان والسجين يلقى المصير الواحد . والمكان السحيق كان يعطى ببعده وتطرفه نوعا من الحرية للضباط أن يتحرروا من سلطة قيادتهم المركزية فى مصلحة السجون وأساساً من سلطة المباحث العامة

ليتصرفوا بنوع من البساطة بل وأحيانا التآخى مع ذلك السجين الذى يعيشون تقريبا حياته ، ويشاركوه تقريباً نفس الطعام ونفس البعد عن الأهل ونفس النفى من الوطن ونفس الكراهية لأولئك الذين أرسلوه إلى ذلك المكان السحيق .

... وبالفعل عشنا تلك التجربة بمجرد رحيل « همت » وقواته لنبدأ حياة قد مهدت لنا بالفعل . ففى الواحات كنا نلتقى بعشرات من زملاء وأصدقاء سبقونا قبل ذلك بسنوات بعضها تعدى العشر

سنوات وبعد الحكم عليهم من محاكم كانت أغلبها عسكرية ، وكانت أشهرها محكمة « الدجوى » .

وهذا الاسم « الدجوى » ، يجعلنى أتوقف لحظة لأسجل خاطرا طالما طرأ وأنا استعيد اسماء الذين لعبوا دور الجلادين فى المحاكمات السياسية للشيوعيين .

على نور الدين وفضائحه حتى عزله .

الدجوى ، الذى انهار ليهاجم مصر عندما أسره اليهود فى حملتهم وعدوانهم وكان وقتها حاكما لغزة .

الفريق هلال عبد الله هلال الذى حاكمنا ليعزل بعد ذلك من الجيش أثر نكسة ١٩٦٧ كأحد المسئولين عنها .

حسين المصيلحى ، رئيس قسم مكافحة الشيوعية الذى يعيش اليوم فى جنيف رئيسا لشركة أجنبية تدور حولها وحول تعيينه أكثر من علامة استفهام !

... وهذا الخاطر يفتح المجال لعديد من الأسماء ولعديد من

الخواطر الأخرى . فكم من أسماء لها نهايات مثيرة وإن كانت غير بيضاء فى اثارتها ، بدأت وعاشت حياتها ترفع لواء الكراهية للاشتراكية والتحريض ضد اليسار والتقدميين .

ولكن لهذه الخواطر قصة أخرى . قصة يكفى قبل أن نعود إلى حكايتنا أن نهيها بأن معاداة اليسار عادة يقود صاحبه لأحضان الرجعية ويدفعه فى طريق مسدود أوله الاستعمار ونهايته نفس هذا الاستعمار .

. . . أيا كان الأمر ، ففى الواحات كنا نلتقى نحن المعتقلين ، بزملائنا الذين يقضون مدة الحكم عليهم بالأشغال الشاقة وبالسجن.

ففى سجن الوحات تجمع معظم الذين حكم عليهم فى قضايا الشيوعية ، وكان لهذا الواقع سبب ، فقد كانت تجربة الحاكم أن يبعد المسجون الشيوعى عن أى سجن عادى ويعزله تماما .

تجربة فرضها اضراب قام به عدة آلاف من المساجين العاديين فى سجن طرة ذات يوم وتحت قيادة بعض الشيوعيين من أجل تحسين أحوال المعيشة .

. . . واكتشاف أن وجود سجين شيوعى بين نزلاء عاديين يعنى انتشارا للفكر السياسى وتعدد الاتصالات بخارج السجن .

وحتى أعتى سجين معتاد للاجرام ليس من المستحيل أن ينقلب انسانا آخر يدين جريمته إذا مافهم بالجدل صلة المجتمع بالجريمة ، وسبب الاجرام من عوامل اقتصادية وظروف اجتماعية وطبقية تحكم هذا المجتمع ، وتفرخ بالاستغلال الجريمة ذاتها .

ولعل أبلغ مثال على ذلك سجين قابلته ذات يوم فى مستشفى سجن مصر قادما من ليمان طرة بعد أن قضى حكما بستة عشر عاما بتهمة السطو المسلح على فرع بنك بالقاهرة فى قضية مشهورة مثيرة ، لأكتشف أنه من خلال علاقة صداقة بسجين شيوعى حل عدة شهور فى طرة ، قد تحول إلى رجل يتكلم فى السياسة ويناقش فى الفلسفة ويدين الجريمة كأسلوب فردى فوضوى لا يحل مشاكل المجتمع .

. . كانت تجربة الواحات فيها مرارة الوحشة فى الصحراء ، والاحساس بأن الدنيا كلها قد تخلت عنك ونستك ، فيها حرارة الشمس التى تكوى الجسد فعلا وصقيع الليالى الطويلة المجهدة . فيها خلاء حياة تشبه الصحراء القفر ذاتها .

وفيها من هذا الخلاء كمهد كل صحراء ، واحة متطرفة تتحدى قفر الرمال وتيهها .

وكانت واحة المعتقل ، ذلك العناد الرائع لزملاء عاشوا سنوات بين الرمال .

عناد من أجل الثقافة . كتب ونشرات ومجـــلات ومرسم ومتحف . عناد من أجـل الإنتاج . أرض يزرعونها بخاطرهم ، لينتجوا كل ما منعته السجون من خضروات . ومهن مختلفة ، هم الذين يتولون الطبخ والنجارة والحدادة وكل ما يحتاجونه من مواد تساعدهم على البقاء . وعناد من أجـل الضحكة والمرح . تمثيليات ومسرحيات واسكتشات وأغنيات وأشعار . كانت حياة متناقضة غريبة ، ولـكنها لم تدم طويلا .

فذات ليلة استيقظنا على أبواب السجن تفتح وأصوات أقدام كثيرة وضجة سلاح .

ثم سمعنا ضابطا ينادى على أسماء .

بعدها بساعات والفجر يلوح فى الأفق كنت ومعى ما يقرب من

الستين زميلا نستقل قطار اواحات الصغير ، والاغلال ذاتها من جديد فى معاصمنا نتجه صوب مصر .

كان فى القلوب فرحة . فرحة الاحساس بالعودة إلى الوطن واقاء الأهل . فرحة رؤية نبات أخضر ونيل وعصفور يطير . ولكن وإلى جانب هذه الفرحة كان التأهب والقلق . فقد كنا ندرك بأننا سنكون أول دفعة من متهمين بالشيوعية يقدمون المحاكم . وهذا يعنى سجونا جديدة ، وأياما لابد وتحمل فى طياتها الكثير . وبالقطع الكثير من المعاناة والشقاء .

... على أى حال كنا نبدأ المرحلة الثالثة من فترات اعتقالنا .

ودون أن ندرى كنا نقترب من «أبوزعبل»... و«الاوردى» و « القشرية » .

... كان المكان الذى اختير ليكون مكانا المحاكمة ، هو الاسكندرية . وكان السجن الذى حللنا به هو سجن الحضرة . وقبل أن نصل إلى الاسكندرية فى تلك السيارات التى حملتنا عبر الطريق

الصحراوى ، تتقدمها سيارات نجدة تعوى فى الظلام ما قبل الفجر ، كنا قد حللنا أياما فى سجن مصر .

لكن سجن مصر ، لم يكن سوى مكان مؤقت أو محطة نتلقى فيها قرار الإتهام بالمحاكمة أمام مجلس عسكرى عال مقره الاسكندرية .

أما لماذا اختيرت الاسكندرية بالذات . فلا أحد يدرى ، سوى أن الاسكندرية ربما تعنى فى نهاية الأمر المكان البعيد الذى يتعذر على عدد كبير من الأهالى والمحامين حضور المحاكمة فيه . كما أنه المكان المحدود الذى من الممكن عزلنا خلاله فى سجن جديد علينا مما يصعب مشكلة الاتصال بالخارج . أو هكذا ظنت المباحث العامة ولكنها كانت واهمة فى ظنها كما شهدت ظروف المحاكمة المثيرة أيامهـــــا .

... كان وصولنا لسجن الحضرة فى ساعة مبكرة من الصباح لنفاجأ بمقابلة استفزازية من مأمور السجن « الحلوانى » الذى مزق أمتعتنا بحجة التفتيش والذى ظل يصرخ وينهر حتى وضعنا فى عنبر معزول تماما عن أى من النزلاء الآخرين .

كان « الحلوانى » معروفا فى مصلحة السجون بهدوئه ورقته ،

ولهذا فهمنا منذ اللحظة الأولى أن المباحث العامة زارته قبل وصولنا ، وأن التهديد المستتر والضغوط قد لعبت دورها .

والواقع ، أن عددا كبيرا من ضباط مصلحة السجون ، انتهوا أسوأ نهاية يمكن أن ينتهى بها ضابط من مهمته التى يفترض احترام القانون ، ليتحولوا ، تحت ضغط ارهاب المباحث أو وعودها إلى ضابط مهمته تعطيل القانون وتطبيق الإرهاب . « فالحلوانى » هذا وبعد شهور معدودة وخلال نظر القضية التالية لنا وهى قضية شهدى عطية الشافعى وزملائه ، ونتيجة للوعد والوعيد ، يدبر استفزازا أكثر جسارة وخطورة فاعتدى على أفراد القضية من الزملاء بالضرب بعد انتهاء المحكمة مباشرة ، ثم يسافر مدعوا من «همت» والمباحث العامة للقاهرة ليشهد استقبال شهدى وزملائه فى أبو زعبل حين وصولهم الذى انتهى بوفاة شهدى . . . كان الحلوانى أحد الذين حضروا ليشهدوا تشريفة شهدى وليستمتعوا بالتعذيب ، فكان أيضاً أحد المسئولين المباشرين عن مقتله .

على أى حال ، وبالنسبة لنا ، فقد كان الحلوانى فى بداية استدراجه أو ترويضه ، ولذا فقد كان استفزازه محدودا ، وتجنبنا

منذ البداية بهدوء أعصاب ، ونحن نعلم أن المعركة الحقيقية حلبتها قاعة المحكمة وليست فى سجن الحضرة .

ولذا ، وعندما بدأت المحاكمة ، برأس المجلس العسكرى الفريق هلال عبد الله هلال قائد المدفعية ، كنا ندخل قاعة المحكمة المطلة على كورنيش الاسكندرية ونحن نتوقع الأزمة المنتظرة . وبالفعل ارتسمت ومنذ اليوم الأول ، عندما وقف على نور الدين يضع على صدره الوشاح الطاهر ليقدم الإتهام الشائن المخزى . وما زلت أعتقد أن هذه الأزمة التى تفجرت بيننا وبين النيابة ممثلة فى على نور الدين كانت أحد الأسباب المباشرة لذلك القرار الذى اتخذته السلطات فيما بعد بضرورة تأديبنا والانتقام منا ، وأن يكون شكل هذا الانتقام هو « أبو زعبل » .

... واشتعلت الأزمة فجأة ، ومنذ البداية ، عندما بدأ على نور الدين خطاب الإتهام بقوله مشيراً الينا فى القفص الحديدى بهذه العبارة « أن هذه الطغمه . » !

وفى الواقع ، فهو بدأها ولكنه لم يكملها ، فما أن نطق لسانه بتلك الكلمات ، حتى كان جميع من بالقفص يهبون وقوفا يحتجون

على العبارة الجارحة ، بينما صرخ بعضنا يردون عليه بأنه بدأ حياته في خدمة الملكية وفاروق . وإن من أكل على مائدة فاروق واعق حذائه لا يحق له أن يتهم وطنيين بأنهم طغمة أو عصابة .

والحقيقة أن كلمة « طغمة » هذه لم تكن تنطبق من قريب أو بعيد على من جلس داخل القفص كلهم في ذلك اليوم . كان في القفص أساتذة جامعات وكان هناك مفكرون معرفون . كان في القفص نقابيون وقادة جماهيريون ، وكان هناك محامون وأطباء ومدرسون ومهندسون .

وكل واحد منهم كان خلفه تاريخ طويل من النضال السياسي من أجل الاشتراكية وضد الاستعمار . وكل واحد منهم كان أيضاً يحمل رصيداً كبيراً من المعاناة من أجل مبادئه ، وحياة تحكي وتنطق بالإصرار رغم الشدائد من أجل ما يؤمن به .

وأغلبهم كانوا قد بدأوا هذا النضال منذ الأربعينات ضد الملكية وضد الإقطاع والاستغلال والإستعمار ودفعوا دون وهن ثمن النضال من حريتهم ومن لقمة عيشهم .

ولعل هذا السبب ، إلى جانب وجود مندوبين للوكالات العالمية

للانباء ، كان الدافع لأن يرفع هلال عبدالله هلال الجلسة ، ثم ليعيدها بعد ساعة ، يخبرنا فى البــداية بأن على نور الدين قد كلف الأستاذ أحمد موسى بالمرافعة بدلا عنه حيث أنه استدعى لأمر عاجل .

... ثم ليحذرنا بأن أى ضجة جديدة تعطيه الحق طبقا للقانون العسكرى الذى نحاكم بمقتضاه ، أن يحـكم على أى مثير للضجة بعشر سنوات أشغال شاقة .

كان انتصارا لنا ، ولـكننا فهمنا أن التهديد أيضاً جدى . ليس فقط لأن القضاء إذا خرج عن نطاق القضاة وأعطيت سطوته لغيرهم ، كان الهدف من ذلك عدم تنفيذ القانون وإنما تنفيذ الإرهاب ... ولـكن أيضاً لأن القانون العسكرى الذى كنا نحاكم بمقتضاه ، كان قانونا غريباً من مخلفات الاستعمار الانجليزى ويكفى أن إحدى مواده تنص « على أن الدعوى يشتابها الإرتباك إذا حضر محامى عن المتهم »

... ذهب على نور الدين ليبدأ أحمد موسى مرافعة مهذبة ، ليعود الهدوء إلى القفص ولـكنه لم يمـكث طويلا .

فبعد ذلك بأيام وخلال استجواب أحد ضباط المباحث العامة

كشاهد اثبات ، فجر الأستاذ أحمد البديني المحامى قنبلة في الجلسة عندما قدم اثباتا بأن هذا الضابط عذب حتى الموت معتقلا في القضية ذاتها . وإن المباحث العامة دفنت الجثة سرا بعد أن أبلغت النيابة بأن المتهم قد هرب من مقر المباحث العامة خلال فترة استجوابه .

... هذه المرة ، كانت الضجة عالية . ففي قفص الاتهام أشارت القبضات المرتجفة بالتوتر إلى رجل المباحث العامة والأفواه تصرخ « قاتل . مجرم » . ومع دموع الألم والإنفعال التي غمرت وجوهنا كانت صيحاتنا تهدر بسقوط قتلة رفيقنا .

ومع الضجة ، خرج مندوبو الأنباء والوكالات العالمية الذين يتابعون الجلسة يهرولون يبلغون صحفهم ووكالاتهم باسم أول شهيد شيوعي مصري استشهد بين مخالب التعذيب ... محمد عثمان .

... بعد ذلك رفعت الجلسة من جديد لتعود سرية . ولكن بعد أن انطلق الخبر في أركان الدنيا يضيف إلى اسم فرج الله حلو اسم محمد عثمان الذى استشهد ولم يتعد الثلاثين من عمره إلا بسنوات معدودة ، لأنه رفض أن يفتح فمه بكلمة واحدة .

... بعد ذلك أيضاً بفترة قصيرة ، كانت المحاكمة تقترب من

نهايتها والجو مشحون بالتحدى عندما وقف فى القفص تقريباً يقدم دفاعا سياسياً ولا ينفى عن نفسه أنه يؤمن بالماركسية وأنه يتشرف بحمل لقب الشيوعى وأنه يفخر بانضمامه للحزب الشيوعى المصرى .

... ثم وليبلغ الإنفعال قمته ، والمحكمة ومعها المباحث العامة يرقبان بذهول زميلنا أحمد نبيل الهلالى وهو يخرج يده من القفص يقدم إلى المحكمة مذكرة ضخمة مكتوبة على ورق مصقول وبخط أنيق ، تتضمن دفاعنا السياسى والقانونى .

وكان بالطبع للذهول سببه ، فقد كنا ممنوعين فى السجن من القراءة والكتابة ، وكان التفتيش يجرى يومياً وبدقة للتأكد من ذلك .

... بعد ذلك أخـــــيراً ولاشك ، كانت العقول المفكرة بالمباحث العامة تضع خطة الانتقام .

... كان أول اجراء اعتقال أحمد البدينى المحامى بتهمة الشيوعية ثم نقله إلى معتقل القلعة حيث اعتدى عليه بالضرب وفرض عليه يومياً مسح بلاط المعتقل من الصباح حتى المساء .

... وكان ثانى اجراء نقلنا على وجه السرعة إلى سجن مصر تمهيدا لعملية أبو زعبل التى لم نكن ندرى بأنها مصيرنا .

... لقد كانت جولة المحاكمة عموما هزيمة سياسية وأدبية لتلك العقول المفكرة بالمباحث العامة . ولذا رسمت نفس هذه العقول الجولة الثانية للانتقام .

وكان اسم هذه العقول ، اسم واحد . اللواء حسن المصيلحى رئيس قسم مكافحة الشيوعية .

* * *

حقيقة أن الأيام والتاريخ أثبتا أن عناصر فى قمة السلطة كزكريا محيي الدين وعبد اللطيف بغدادى اشتركت فى وضع الخطوط العامة لتعذيب الشيوعيين يساعدهم فى ذلك بعض المستشارين من رجال المخابرات الأجنبية الأميركية « مايلز كوبلاند » الذى عمل فى فترة هذه السنوات كمستشار زكريا محيي الدين للامن الداخلى ومحاربة الفكر اليسارى . حقيقة أن آخرين كعبد الحميد السراج تقدموا بخبراتهم وحقدهم ودفعوا عجلة الانتقام . إلا أن وفى النهاية فقد

كان المنفذ الأول ، والذى أوكل إليه بتعذيب وتصفية الشيوعيين ، وترك له رسم الأسلوب وأحكام التفصيلات . اللواء حسن المصيلحى ولا أحد غيره .

— ٤ —

لا يمكن فصـــــل عملية « أبو زعبل » عن شخصية حسن المصيلحى .

ولا يمكن فهم ماحدث بين جدران « الاوردى » دون فهم ومعرفة تلك العقلية التى رسمت المأساة الدموية . وهذا ما أعتقده ، وما أزداد به إيمانا كلما عدت بفكرى وذاكرتى إلى تلك الأيام.

فالرجل كما عرفته وكما عرفه غيرى ، وكما سمعت أسأل عنه طيلة السنوات الماضية التى انتهت لتحيل الرجل من ضابط مباحث ومستشار للامن الداخلى ، إلى عضو مجلس إدارة شركة أجنبية مقرها جنيف بسويسرا حيث يقيم الآن .

... الرجل وتاريخه وشخصيته ، كل ذلك مجتمعا يمكن أن

يلقى ضوءا على العقل المدبر الذى أعد عملية أبو زعبل بكل تفاصيلها واختار منفذيها ورسم صورتها .

ولست أحاول هنا أن ألقى بالمسئولية كلها على منكبيه . لست أدعى أن حسن المصيلحى كان هو المحرك الوحيد لعملية أبو زعبل . فلاشك أن الأمر بالعقاب وأيضاً بالإنتقام والتأديب قد صدر من أعلى من السلطة السياسية ذاتها .

... لاشك أن وراء عجلة الانتقام ، كانت الظروف السياسية التى عكست الأزمة العميقة بين عبد الناصر والشيوعيين ، على المستوى العربى وعلى المستوى الداخلى .

وأن الخلاف الذى حاول الشيوعيون جاهدين أن يبقوه كخلاف فرعى وغير أساسى ، كانت عديد من القوى قد نجحت فى تصويره كخلاف أساسى ورئيسى بقصد عزل اليسار وتصفيته .

وأن السلطة السياسية وشعارات « تصفية الشيوعية » أصبحت شعاراتها ، يكتبها معلقوها الرسميون وغير الرسميين فى الجرائد والمجلات ووسائل الأعلام .

كل ذلك كان يفتح الباب لعملية دموية شعارها تصفية الشيوعية

... كان وزير الداخلية زكريا محيي الدين المعـادي دائما للديمقراطية والاشتراكية والمعـالي، أبدا للغرب وأسلوب الحياة الأمريكية .

... زكريا محيي الدين ، الذي في عام ١٩٧٢ عادى سيادة القانون وطالب بوصاية مجلس الثورة القديم وحل مؤسسات الشعب الدستورية ورسم مشكلة مصر في بيان « الجبهة الوطنية » على أنها مشكلة الوجود السوفياتي وليس مشكلة الاحتلال الاسرائيلي لأرض مصر .

هو نفس زكريا محيي الدين عام ١٩٥٩ عندما واتته الظروف ليضرب اليسار ، وباسم ضرب اليسـار ضرب القوى الديمقراطية كلها في مصر .

وإذا كان في ذلك الوقت ، وعلى أحسن الاحتمالات ، أن شعار القبض على الشيوعيين كان مقصودا به فقط مجرد القبض . فكل الظروف بما فيها حتى المنفذين ابتداء من زكريا محيي الدين حتى رجله حسن المصيلحي (وحتى مستشاره عميل المخـابرات الأميركية

مالز كوبلان » . كل الظروف كانت توحى ، بل وتفتح الباب واسعا لأن تتحول عملية القبض إلى عملية تأديب . وأن تنقلب عملية التأديب إلى أكثر من ذلك بكثير .

.. لاشك أن الأمر قد صـــــدر من أعلى بمعاقبة الشيوعيين المشاغبين وتلقينهم درسا . ولـكن لاشك أيضاً أن جوهر العملية وتفاصيل التعذيب وجزئيات الإنتقام بما فيها اختيار المـكان وأسلوب التعذيب البدنى والعقلى ، وتحديد الجلادين المباشرين للعملية . . .

. ذلك كله كان من خلق وابتـكار ذهن حسن المصيلحى .*

... ولو جاز لى استعمال أسلوب رجال السياسة لحظة ، فان الأمر أعطى له « نور أخضر » ليترك التصرف للرجل المناسب . وكان الرجل المناسب حسن المصيلحى . ولذلك أسباب .

---

* من خلال قراءتى لـكتاب من تأليف الصحفي الفرنسى « جاك كوبارد » عن نضال الشعب اليونانى تحت حكم بابادوبولوس اكتشفت أن أساليب التعذيب واحدة حتى فى تفصيلاتها مما يقطع بوجود مدرسة واحدة مدربة على ذلك .

... بدأ حسن المصيلحى حياته « ملازم أول » بالمباحث العامة وخرج منها لواء . أى أنه قد يكون الوحيد فى تاريخ المباحث العامة الذى قضى الخدمة كاملة ودون انقطاع ولسنوات كثيرة متتابعة فى جهاز حساس من طبيعته تغيير الضباط إذا ما تغير نظام الحكم أو اختلفت الظروف السياسية .

فالرجل خدم فى عهد فاروق والملكية ، ليخدم بعد ذلك أيضاً وعندما تحققت ثورة يوليو . وليرتفع منصباً منصباً ، درجة بعد الأخرى لايهتز ولا تؤرقه التغييرات العميقة العنيفة التى عايشها المجتمع المصرى وعلى مدى سنوات تتعدى الخمس والعشرين .

والرجل أيضاً وبالذات قد خدم دائما فى قسم مكافحة الشيوعية فعندما كانت المباحث تعرف بالقلم المخصوص كان زميلا فى قسم مكافحة الشيوعية لتوفيق السعيد والجزار . وعندما تغير الاسم للمباحث العامة بعد فاروق زامل من بقى ومن أتى . زامل أحمد صالح وعاشوب .

وهذا يلقى ضوءا على بقائه فى منصبه كل هذه الفترة . فمعاداة الشيوعية ظلت شعاراً خفاقا لم تخف وطأته إلا منذ وقت قليل . وهو

إذا صدأ وقتا فمديد من القوى الرجعية واليمينية تعمل فى إصرار وعناد ليعود خفاقا من جديد .

بل وها هو اليوم قد بدأ يرتفع من جديد !!

وهو كرجل كرس حياته لخدمة هذا الشعار فقد كان يدعى دائماً أنه يعرف معظم الشيوعيين المصريين اسما اسما ووجها وجها معرفة تـكاد أن تـكون هواية !

فلا يفخر بأنه راقبهم بنفسه وكان مرشدوه ومعاونوه من العملاء على صلة شخصية به فقط لا يعـــلم بهم أحد سواه ، حتى زملاءه أو رؤساءه .

وهو أيضاً كان يتفاخر بأن عداءه للشيوعية عداء فـكرى ، إلى الحد الذى وصل به ذات يوم أن يصرح بأنه لو كان يقوم بنفس المهمة فى فيتنام لما شهدت فيتنام حزبا كحزب هوشى منه ، ولما شهد جنوب شرقى آسيا انتشار الفـكر الشيوعى !

فالرجل مغرور وهذه حقيقة . ونفس هذا الغرور هو الذى دفعه فى النهاية لأن يتحدى نفس السلطة التى خدمها ويرحل شبه هارب

إلى جنيف ليعين فى منصب بشركة أجنبية كبرى من الصعب أن يناله مصرى لا يفهم فى الصناعة والتجارة شيئاً ولا يتكلم من اللغات الأجنبية سوى كلمات من الانجليزية وبصعوبة ..

... علامة استفهام كبيرة أبعادها خارج مصر قد تفسر الغرور والثقة الزائدة عن الحد والاندفاع لتحويل القبض على الشيوعيين إلى مجزرة ومأساة . .

* * *

ولكن الشخصية ولا شك جذابة ، فهو دائماً هادىء . صوت خفيض لا يرتفع وكلام ناعم وأدب دائم .

فقد تكون أمامه يحدثك مبتسما ويصر على فنجان قهوة وسيجارة من سجائره ، وفى ذهنه أن مصيرك ليمان من الليمانات .

. . . إنه إذن تلميذ نجيب من تلامذة إبراهيم إمام الذى خلق البوليس السياسى فى مصر فى عهد فاروق . . . وصاحب المدرسة التى تتجنب أن تضع أصابعها فى دماء الضحايا وإن كانت تكلف فرعاً آخر من المدرسة بهذه المهمة . بينما تدعى دائماً أنها غير مسئولة عن أعمال الإرهاب والقمع وأنها تدين القسوة ! ...

... فحسن المصيلحى نوع من رجال الأمن الذى يتشبه « فوشيه » . يخدم أكثر من سيد ، ويقتل بقفاز حريرى ويحاول أن يرتفع من مستوى الضبط والربط إلى مستوى الرجل السياسى .

والفارق أن فوشيه ارتفع فعلا إلى مستوى رجل السياسة أما حسن المصيلحى فلم يرتفع . لأن ظروف القرن العشرين تختلف . ولأن فوشيه كان يقرأ ويحاول أن يتثقف . ولأن من الصعب على إنسان فى هذا العصر الذى شهد ويشهد انتصار الاشتراكية المتوالى حتى أصبح أكثر من نصف العالم اشتراكيا ... من الصعب على إنسان فى عصر هذا شأنه أن يقف فى وجه التاريخ وحتميته حتى ولو كان رئيساً لقسم مكافحة الشيوعية .

كما أن الواقع يشير أن حسن المصيلحى رغم حذره ، لم يستطع فى النهاية أن يبقى بعيداً عن عمليات التعذيب التى كان يأمر بها . بل ويشير الواقع إلى أنه اضطر مرتين على الأقل لأن يشرف وبنفسه على تلك العمليات « غير النظيفة » .

مرة فى عام ١٩٥٥ عندما أشرف بنفسه على تعذيب الدكتور

إسماعيل صبرى عبد الله بالسجن الحربى . وهناك ظل يحقق معه بنفسه ويوما بعـــد يوم وإسماعيل مشرف على الموت دامى الجسد ممزقه .

ومرة أخرى عام ١٩٥٩ .. وكانت عملية « أبو زعبل » .

فللسياسة أحكام . فى المرة الأولى حاول حسن المصيلحى وقد غامر بأن قبض على إسماعيل صبرى على أساس أنه الرفيق « خالد » سكرتير الحزب الشيوعى المصرى ، وكان إسماعيل وقتها مستشاراً خاصاً لرئيس الجمهورية للشئون الاقتصادية ... حاول المصيلحى والأمر هذا قصته أن ينتزع بنفسه الاعتراف . ولكن الاعتراف لم ينتزع لإصرار إسماعيل وصموده الذى كاد يكلفه حياته ، ولأن أيضاً معلومات حسن المصيلحى فى ذلك الشأن كانت خاطئة . فسكرتير الحزب إذ ذاك كان الدكتور فؤاد مرسى . وكان إسماعيل واحداً من قلائل معدودين يعرفون هذه الحقيقة التى يجهلها المصيلحى . ولذلك فلعله كان يضحك من أعماقه رغم السياط التى قطعت جسده والكلاب المتوحشة التى نهشت لحمه .

أى أن فى هذه المرة الأولى قام المصيلحى بنفسه بتلك المهمة التى

كان يتركها للآخرين ، لأن انهيار إسماعيل واعترافه كان يمثل نصراً خاصاً له وفي هذا فشل ...

أما في المرة الثانية ، فقد ظن أن أزمة اليسار العربي مع عبدالناصر عام ١٩٥٨ ، تمنى أن الفرصة قد سنحت له أخيرا لإبادة الشيوعيين الذين عاداهم طيلة حياته ، فاندفع ينفذ عملية أبوزعبل الدامية بنفسه ، ليكتشف فجأة والعملية في قمتها أن الظروف السياسية تتغير ، وأنه يقف بغتة وحيداً والدماء تقطر من أصابعه ، بينما يبدأ السيد الحاكم يتغنى بالاشتراكية والصداقة بين مصر والاتحاد السوفييتي ...
أشعر أني انفعلت ، ولكن فالحديث عن المسئولين عن عملية أبو زعبل هو عذري .

لقد ظللت تسعة أعوام كاملة بعد خروجي للحرية أمسك بالقلم لأكتب أي شيء ، ولكن لا أستطيع أن أقترب من تلك الذكرى المؤلمة .

... عذري ، أني شاهدت الدكتور فريد حداد على الأرض عارياً مهشم الرأس وسائل مخه يبلل رمال « الأوردي » . وسمعت

العصى والسياط والشوم وهى تنزل على جسد شهدى عطية الشافعى حتى توقفت تعلن موته . ووقفت عاجزاً أرقب رشدى خليل وهو يموت فى بطء وحشرجة . وفقدت صديقين ، محمد عثمان وبسمته الحلوة ولويس إسحق وإيمانه العنيد بالمستقبل .

... عذرى ، أنى وحتى فى الحرية ، ألمح حنان ابنة شهدى تعيش حياتها دون أب . وأقابل فتحى خليل شقيق رشدى لأرى ملامح الرفيق الذى ذهب فى محياه . وأزور رغم دموعها التى لا تريد أن تكف والدة محمد عثمان ، وأسمع حديثها الذى لا ينقطع عن محاولاتها الدائمة لاكتشاف أين دفن المصيلحى جثة ابنها .

* * *

... بعد انتهاء المحاكمة فى الاسكندرية ، رحلنا بنفس السيارات التى جئنا بها ، وبنفس القيود والجنازير وفى منتصف الليل ، عبر الطريق الصحراوى إلى القاهرة . لنحل فى سجن مصر عدة أيام ، تمهيداً لنقلنا إلى « أبو زعبل » .

... وكما حكيت من قبل ، فلم نكن نعلم شيئاً عما دبر لنا

فى الخفاء ، فقط أحسسنا والمحاكمة تنتهى بأن المعاملة أيضاً تتغير وللأسوأ عندما وصلنا سجن مصر تأكد هذا الاقتناع عندما حرمنا من كل المزايا التى تنص عليها اللائحة التابعة لمصلحة السجون والتى تمتعنا ببعضها خلال المحاكمة كالزيارة مثلا . فصدر الأمر بمنعنا من الزيارة والأكل من الخارج والقراءة ، وبوضعنا فى أقذر عنبر فى السجن وهو عنبر « ج » الذى كان مخصصاً للسجناء من المسئولين ولمرضى الأمراض الجلدية ، والذى لم يدخله قبل ذلك أى سجين سياسى

وكان أن هددنا بإضراب عن الطعام ، إذا لم تجب مطالبنا القانونية التى تنص عليها اللائحة والتى تتيحها لأى سجين على ذمة قضية سوف يصدر فيها الحكم طال الأمد أم قصر .

... سخرية أن يكون المتهم بتسريح الغلمان والدعارة والمخدرات حقوق ، وأن يحرم سجين بتهمة عقائدية من أى حقوق !
.. ولكننا ورغم ذلك كله ، وحتى اللحظة الأخيرة قبل ترحيلنا إلى « أبو زعبل » فى فجر ٨ نوفمبر ١٩٥٩ ، ظللنا لانعلم ماينتظرنا ونعيش فى ظل زعم خاطئ .. أن الشدة محدودة .

وأن الأزمة طـــــارئة . وأن ما ينتظرنا على أسوأ الفروض معتقل الواحات .

* * *

وكنا واهمين . نظن أن الوحدة الوطنية يمكن أن تلتئم بسرعة ، وأن التناقض بيننا وبين الحكومة يمكن أن يختفي سريعاً وأن السلطة السياسية يمكن أن تدرك ما حاولنا جهدنا أن نقوله في المحكمة وخلال التحقيق ، من أن خلاف الحليف مع حليفه واختلاف الصديق مع صديقه لا يجب ولا يجوز أن يتحول إلى تناقض رئيسي يفتح الباب لضرب الوحدة الوطنية ذاتها ويعطي جواز المرور لعملاء الاستعمار وفلول الرجعية لكي تصول وتجول .

... كنا واهمين ، نظن أن التحدي السياسي في المحاكمة بإعلان الفخر بالمبدأ وتفجير مقتل محمد عثمان دولياً قد مضيا دون أثر أو عواقب .

... وكنا مع الوهم ننسى ، القوى الاجتماعية اليمينية التي تتحرك وتهجم ، والظروف السياسية التي تتعقد في العراق وسوريا

والصداقة العربية السوفييتية وهى تتوتر وتمتد .

وكنا أيضاً مع الوهم ننسى واقعتين تنفجرتا فى المحكمة كقنابل موقوتة لتنشر الاضطراب والهزيمة فى صفوف النيابة والمباحث العامة .

واقعة أولى قدمنا الإثبات عليها لتعصف نهائياً بفكرة محاولة قلب نظام الحكم التى استمات على نور الدين على محاولة إلصاقها بنا .

.. وواقعة ثانية خدمتنا بها الظروف لنوجه لطمة شخصية للمباحث وحسن المصيلحى على قمتها .

واقعتين تستدعيان الحكاية . ليس فقط لأنهما فريدتان من نوعهما ، وإنما أيضاً وفى يقينى ، أنهما كانتا وإلى حد كبير فى أسباب ترتيب عملية « أبو زعبل » ! .

كان اتهام النيابة ومن خلفها المباحث العامة ، كله يستند على فكرة أن هدفنا هو قلب نظام الحكم . وكان دفاعنا القانونى والسياسى كله ينصب أننا كقوة وطنية تسند الحكم الوطنى الموجود .. أننا حلفاء وإن كنا نختلف معه فى نقاط أخرى لمزيد من الديمقراطية ولمزيد من ضرب القوى الرجعية الاستعمارية والمزيد من التحول الاجتماعى ، وفى حدود إثبات هذه الحقيقة ، قدمنا تفصيلين خطيرين ، عصفا بتهمة النيابة من أساسها .

كان التفصيل الأول ، يذكر واقعة تتحدد فى أن محمود أمين العالم بصفته عضواً قيادياً فى الحزب الشيوعى المصرى وبتكليف من الحزب قد أبلغ السلطة السياسية الحاكمة بنبأ انقلاب استعمارى تحضره القوى الاستعمارية ضد عبد الناصر ، كما ذكر أنها مؤامرة « المكباتى » فى الجيش التى أفشلت بناء على هذا التحذير .

وأن التفصيل الأول يذكر موقعة ثانية تتحدد فى أنى وبناء على تكليف من سكرتارية الحزب الشيوعى المصرى قمت بإبلاغ

السلطة السياسية الحاكمة عن انقلاب استعمارى آخر تحضره القوى الاستعمارية ضد عبد الناصر وفى ظروف كانت مصر يتهددها عدوان استعمارى خارجى حدث وبالفعل . وكانت مؤامرة عاطف نصار ومحمد صلاح الدين التى أفشلت بناء على هذا التحذير .

وكان مبدؤنا فى الإبلاغ ، أننا كحلفاء فى الوحدة الوطنية ضد الاستعمار وعملائه من أول واجباتنا حماية حكم عبد الناصر كحكم وطنى . وكان أسلوبنا فى الإبلاغ أسلوباً سياسياً رفضنا فيه أن نتحول كمخبرين . فكنا نقدم وقائع المؤامرة ومكانها والقوى السياسية التى تشترك فيها دون ذكر الأسماء .

وأذكر مثلا أننى عندما أبلغت السلطة السياسية نبأ مؤامرة عاطف نصار ، كان الإبلاغ يتضمن أنها فى المنطقة الشمالية — الاسكندرية — وأن الوفد يشترك فيها دون ذكر اسم عاطف أو صلاح الدين ، كما أذكر أن الإبلاغ تم عندما اتصلت بلطفى واكد رئيس تحرير جريدة « الشعب » ووكيل عام المخابرات حينذاك .

وفى الحالتين ، كان محمود العالم كما كنت أيضاً ، نقوم بهذه

المهمة رغم أنها كانت إعلاناً عن نشاطنا الشيوعى وكشفاً للجانب السرى من حياتنا ، ولكن هـذه المخاطرة تحملناها بصفتنا أعضاء فى الحزب الشيوعى صدر لها أمر واجب التنفيذ وعن اقتناع بأن المصلحة الشخصية تخضع دون حدود لواجب المصلحة الوطنية .

فى الحالتين ، وصل شكر من عبد الناصر للحزب ، شكر من الحليف لحليفه .

فكيف وهذا شأن الحليف ... أن يتهم بقلب نظام الحكم ؟! ...

* * *

هذه قصة عصفنا باتهام النيابة . أما قصة اللطمة الشخصية التى وجهناها للمباحث العامة والمصيلحى فقد كانت أقرب إلى القصص الرومانتيكية التى تصلح للمسرح أو السينما ..

... وكان القدر ، وأيضاً ذلك المبدأ الذى طبقناه دائماً فى تعاملنا مع الخصوم ... القدر ربما لأنه فى النهاية حصيلة انتصار

الإنسانية على أعدائها ... والمبدأ فى معاملة الخصوم والذى تلخص فى كسب الخصم إن أمكن . وإذا لم يمكن فليحيد ، وإذا لم يمكن فلتستمر المحاولة ... المبدأ الذى يقول بأن شراسة الخصم قد تكون أحياناً عن عدم فهم أو تخلف ، أو عن تحيز مسبق يمكن أن ينهار بالفهم الإنسانى والنقاش الهادئ والإقناع الذى لا يمل أو يكل . المبدأ الذى يقول بأن فى كل إنسان نقطة خير علينا أن نبحث عنها ونتمسك بها .

ولذلك لم تكن الواقعة التى سأحكيها مجرد صدفة بحتة . كانت نتاجاً لتصرف إنسانى وجماعى لمواقف مبدئية من التصرف . فقبلها مثلا وفى معتقل الواحات حدث لها مثيل وإن كانت الظروف مختلفة والأبطال غير الأبطال .

ذات يوم عين مأموراً لسجن الواحات . ضابط اشتهر بالشدة والعداء للشيوعيين وكان اسمه فريد شنيشن . ومرت أيام وشهور والسجن يعيش فى ظل هذا الرجل الذى لا يريد أن يغير أو يتغير ، حتى كان يوماً فوجئ فيه المعتقلون بالعنبر يفتح فى نصف الليل

وفريد شنيش يدخل شاحباً مضطرباً يفتح الزنازين ليسأل عن طبيب بين المعتقلين .

وتلخصت الحكاية ، أن طفلى المأمور وفى غفلة منه ابتلعا علبة كاملة من دواء لضغط الدم وهو « سربازيل » ليصابا بإغماء شديد وليشرفا على الوفاة .

وكان السبب فى البحث عن طبيب بين المعتقلين ، أن طبيب الواحة يقضى أجازته فى القاهرة ، وأن أى طبيب قريب على بعد عدة مئات من الكيلومترات .

وهكذا خرج من بين المعتقلين طبيبان . هما الدكتور حمزة البسيونى وصلاح حافظ ليسرعا مع المأمور إلى منزله الذى يقع على بعد عدة كيلومترات من السجن وليقضيا ساعات الليل كلها وحتى الصباح يجاهدان جهاد المستميت لإنقاذ حياة الطفلين ، غسيل معدة وأدوية منبهة وإجبار الطفلين على الاستيقاظ والحركة وعدم الاستسلام للنوم . حتى الصباح ظلت المحاولات لتنتصر الحياة وينقذ الطفلان .

... بعدها تغير الرجل وغير أيضاً ، إلى الحد الذى اضطرت فيه المباحث العامة إلى إبعاده عن سجن الواحات . ثم اضطرت بعدها مصلحة السجن لإبعاده عن مزرعة سجن طرة ، فالرجل تحول إلى مصلح اجتماعى يعامل السجين الشيوعى كصاحب رأى وعقيدة ، ويعامل المجرم العادى كضحية للمجتمع . ببساطة أصبح إنساناً محترماً .

أما الحكاية الأخرى التى عشنا تفاصيلها المثيرة خلال المحاكمة ، فقد كانت بدايتها فى الواقع قبل ذلك بشهور فى سجن مصر .

وتبدأ القصة بصداقة نشأت بين سجين شيوعى فى سجن مصر هو الدكتور شريف حتاتة وضابط به . ولذا كان من الطبيعى وعندما وصلنا نحن مرحلين من الواحات فى طريقنا إلى الاسكندرية لمحاكمتنا أن يعرفنى شريف بهذا الضابط ، بصفتى مندوباً عن الدفعة لشئون الاتصال بإدارة السجن وترتيب حاجياتهم ، كتنظيم الطعام وشراء السجائر من الكانتين وتنظيم طريقة التعامل والنظام بين

المعتقلين والإدارة ، تلك المسئولية التى كنا نسميها « مسئول عن الحياة العامة » .

وبالفعل تعرفت بهذا الضابط لتمتد الأيام تنمى من صداقة نشأت بيننا . فقد كان من ذلك النوع النادر من الضباط الذين يرفضون الاستسلام لوحشية الحياة فى السجن ، ويبغضون أسلوب الحياة بين القضبان ، وينتظرون اللحظة للانتقال لأى عمل آخر بعيداً عن مكان يسمى السجن .

... ثم والمحاكمة تقترب ، كنا نفترق وقد رحلنا إلى سجن الحضرة ، لأفاجأ به مرة أخرى يتبعنا إلى هذا السجن السكندرى بعد نقله إلى الحضرة ضمن حركة التنقلات السنوية .

ولكن ظروف المحاكمة ، التى فرضت خروجنا يومياً لحضور جلسات المحكمة ، وظروف الرقابة المشددة التى طبقتها المباحث العامة من خلال التعليمات والعيون والمرشدين . كل ذلك دعاه لأن يتحاشى مقابلتى ، ويجعلنى أنا أيضاً أدرك ظروفه وأقدرها ، فأتجنب مقابلته مستجيباً لرغبته وحماية لظروفه .

.. ولذلك كان غريباً ومفاجئاً أن أراه يستدعيني ذات ليلة وبعد إقفال السجن وخلال فترة نوبتجيته ، ليخبرني نبأ وقع على وقع الصاعقة .

ونلخص النبأ في أن أحد المتهمين في القضية قد اتصل به ضابط كبير بالمباحث . وأن هذا المتهم تحت تهديد من الضابط بأن المباحث سوف تلقي القبض على زوجته التي يحبها والتي تزوجها بعد حكاية غرام عاصف ، قد وافق مقابل ترك زوجته وشأنها أن يتحول إلى شاهد ملك في القضية كما يجيز القانون العسكري ، أي يتحول إلى شاهد إثبات مقابل اعترافه على بقية المتهمين . وأن موافقة المتهم على عرض المباحث العامة قد تم فعلا لا ينتظر سوى جلسة الصباح القادم لكي يتم ماقد اتفق عليه وخطط له . ولا داعي لأن أذكر اسم هذا المتهم الذي دفع ثمن لحظة ضعفه ، ولكن المهم أن النبأ وقع على وعلى زملائي وقع الصاعقة . فقد كان هناك عدد كبير من زملائي في القضية ، من المتوقع الحكم ببراءتهم لعدم وجود أي أدلة قانونية ضدهم ، حيث أن القضاء لايعتد عادة بتقارير المباحث العامة ومراقباتها حتى ولو كان القضاء عسكرياً نتيجة لما ثبت دائماً من أن هذه التقارير مزيفة ولا تطابق الحقيقة .

وكان معنى أن يعترف أحد المتهمين ويتحول إلى شاهد ملك أو شاهد إثبات ، أن مركز هؤلاء المتهمين قد عصف به تماما .

... وصل إلى النبأ من الضابط فى المساء ، وبعد أن تم إقفال السجن ، ولكن الصباح لم يحل إلا وقد أعددنا للأمر عدته .

كان صراعا ضد الظروف والوقت والقضبان ، وكان أيضاً أن قمنا بمحاولات استوجبت جهداً بشرياً خارقا وبالطبع مالا ، ولكن ذلك كله نجح فى النهاية .

... المال حتى يرضى أحد حراس السجن الاتصال بزوجة هذا المتهم وقبل الصباح ، والجهد البشرى حتى نحاصر زميلنا الذى كاد ينهار حتى لايتصل به ضابط المباحث من جديد وقبل أن تتحقق خطتنا التى رسمناها بدقة .

وفى تلك الليلة لم ننم ، ولم تهدأ نفوسنا إلا عندما فتح العنبر فى الصباح ، وقبل ترحيلنا إلى قاعة الجلسة ، ليأتى أحد الضباط ويطلب زميلنا إلى غرفة الزيارة ، لأن زوجته قد حصلت على تصريح بزيارة خاصة وتطلب رؤيته .. وبالفعل كانت الزوجة التى استغلت

بذكاء كل تسهيلات المباحث العامة وأخفت فى نفسها حقيقة الغرض التى أنت من أجله تريد مقابلة زوجها .

ولكنها وما أن واجهته حتى كانت تخبره بأنها ستطلب الطلاق منه فوراً إذا ماخان زملاءه . فهى وكما ذكرت له ، تفضل أن تبقى وحيدة وزوجها خلف القضبان من أجل مبدأ اقتنع به ، على أن تحيا مع رجل اشترى حريته بحرية الآخرين ، وسعادته الشخصية على حساب زملائه وتعاستهم .

وكان أن بدأت الجلسة فى ذلك الصباح ، ليطالب هلال عبد الله هلال من المتهم أن كان ، مازال مصرا على أن يتحول إلى ـ شاهد ـ ملك كما ذكر من قبل فى الطلب المقدم منه والذى قدمته للمحكمة النيابة العامة . ليقف زميلنا ليعلن أن هـذا الطلب قد تقدم منه تحت ضغط المباحث العامة وتهديدها بالقبض على زوجته ، وأنه إذ يعلن ذلك فهو يعلن أيضاً أنه يفضل السجن على الاعتراف ، أيا كان شكل ولون هذا الاعتراف .

... كانت ساعة هى قمة مأساة إنسان ، وساعة عشناها بأعماقها وبأعصابنا ، قصة رجل ضعف لحظة ليسترد رجولته ، وامرأة

عظيمة رائعة تدفعه للشهامة والرجولة . وهي قصة أيضاً لرجل آخر ...
ضابط لا شأن له بما يحدث ، لولا صداقة عابرة احترمها وقدرها للحد
الذى يساعد فيها أصدقاءه حتى ولو هـدده الخطر . وهزيمة شخصية
لحسن المصيلحى !

* * *

ذات يوم ذهبت إلى المباحث العامة ، وبعد خروجى بقليل أحاول
أن أناقشهم فى إعطائى الحق بالسفر إلى الخارج حيث أنى وبالطبع
كنت وما زلت فى القائمة السوداء الممنوعة من السفر .

ويومها وجدت حسن المصيلحى ليستدعينى إلى مكتبه ، وكعادته
يبـدأ مناقشة ناعمـة مضمونها أنه لم يكن مسئولا عما حـدث فى
« أبو زعبل » واستعراضاً لقوته ونفوذه .

وتطرق الحـديث دون أن ندرى إلى هيكل ، فما تطرق من
موضوعات عامة .

وفجأة وجـدت المصيلحى يستعرض قوته بالهجوم على هيـكل
ويحكى القصة التالية :

عند سفر الرئيس عبد الناصر إلى الهنـد ، كان هيكل معه ، وكان المصيلحى مسئولا عن أمن الرحلة . وعند دخول هيكل الطائرة طلب منـه المصيلحى تفتيش حقيبة كان يحملهـا هيكل فى يده .. وكما ذكر رفض هيكل فى البـــداية ثم وافق غاضباً والمصيلحى يصر على طلبه .

بعد ذلك وخـلال عشاء فى الهند ، فاجأ عبد الناصر المصيلحى بالـكلمة التالية :

— هناك سؤال يود هيكل توجيهه إليك وأخبرنى به . كيف يمـكن لك أن تتأكد كمسئول للأمن عن الرحلة إن وقود الطائرة الذى يفرغ فيها ليس به مواد متفجرة أو ناسفة ؟ ! .

ورد المصيلحى فوراً :

— عادة أنا أرفض فى آخر لحظة أن تعبأ الطائرة بالوقود من الخزان المعد لهـا . واختار بدله وبمحض الصدفة أى خزان آخر من الخزانات الـكثيرة الموجودة فى المطار .

... كانت تلك القصة سواء حدثت أم لم تحدث . وكان المصيلحى

يريد أن يدلل بها وبطريقة غير مباشرة على أنه كان على تناقض دائماً مع رجال السياسة ورجال الحكم . أنه أيضاً مضطهـد ! ! وبالطبع لم أكن ساذجاً إلى الحد الذي أصدقه . ولكن الشيء الوحيد الذي كنت أصدقه والذي سمعته عنه كثيراً ، مدى حقد المصيلحي على أي إنسان أصابه في شخصه أو في غروره .

فقد كان المصيلحي يداوم الهجوم على هيكل وإلى هذا الحد العلني وهو رجل من المفروض أن يحسب لكلامه ألف حساب ، لأن هيكل تناقض معه في عام ١٩٦٣ عندما قرر عبد الناصر الإفراج عن الشيوعيين وقاوم المصيلحي هذا الإفراج ، ليطالب هيكل ويقترح نقله من المباحث العامة إلى الجوازات والجنسية ، لأنه رجل بوليس وغير سياسي !

... ما أريد قوله من هـذه القصة ، هو مدى حقد وعنف المصيلحي على أي شخص ينال منه ومن طموحه ... وما أريد قوله أيضاً وبالنسبة لقصتنا نحن ، إن المصيلحي وأخلاقه تلك ، فمن الممكن فهم كيف أن هزيمة مؤامرته خلال محاكمتنا ، كانت سبباً شخصياً يضاف إلى كل ما سبق وذكرته من أسباب

لكي يدبر المصيلحى وبشيطانية عملية « أبو زعبل » وللانتقام منا شخصياً .

... وهكذا وفى فجر ٨ نوفمبر ، والتاريخ له أيضاً معناه ـ فالمصيلحى اختار عيد الثورة السوفيانية لتبدأ « التشريفة » ويبدأ تعذيبنا !

هكذا وفى ذلك الفجر الذى لن ننساه وننسى الساعات التى تلاحقت بعده ماعشنا ، بدأت رحلة العذاب والموت والاستشهاد ... وأيضاً رحلة الصمود . .

. . فى ذلك اليوم بدأ « الأوردى » يستقبل ضحاياه !

— ٦ —

حوالى الساعة الثالثة صباحاً سمعنا صوت باب عنبر « ج » بسجن مصر يفتح فجأة ، وضجة أقدام كثيرة تطرق أرضه وأصوات تأمر وتصيح وأبواب الزنازين التى حللنا بها فى الدور الأرضى تفتح واحدة بعد الأخرى .

وللحظة سرى فى نفوسنا الاستبشار ، فقد كنا فى ذلك اليوم نفسه قد بدأنا إضراباً عن الطعام احتجاجاً على وضعنا فى ذلك العنبر أقذر عنابر سجن مصر. والقذارة هنا تعنى عشرات الألوف من البق والقمل التى أحالت ساعات سجننا جحيما ... واحتجاجاً على منع الزيارات والفسح والكتب وإبقائنا مسجونين داخل الزنازين الأربع والعشرين ساعة كاملة .

للحظة سرى فى نفوسنا الاستبشار نظن أن قراراً قد صدر بنقلنا إلى سجن جديد أو معتقل آخر تتوفر فيه المعاملة القانونية كما كنا قد طلبنا .

ولكن الشعور مالبث أن تبخر ونحن نرقب مايحدث ...

كانت الأوامر تصدر بحدة غير عادية . وكان تفتيش الأمتعة يتم بدقة واستفزاز وصلا إلى حد تحطيم زجاجات الدواء على أرض العنبر . وكانت وجوه الضابط وحراس السجن الذين عرفناهم لشهور متجهمة على غير العادة ، تتحاشى أن تتلاقى بأبصارنا .

وكان أن خرجنا كما طلب منا والوجوم يسودنا ، نصطف

كما طلبوا وأمروا ، ونمد معاصمنا لتدخل فى الحلقات الحديدية التى لاحقتنـــا طيلة فترة اعتقالنا ... ثم نتحرك صوب فناء السجن الخارجى لتصطدم أبصارنا بسيارات كبيرة بأبواب مفتوحة تنتظرنا لتضمنا فى أحشائها .

.. وفى تلك اللحظة حـدث شىء غريب ، أدركت منه أن أمراً خطيراً سوف يقع وأن كارثة ماتنتظرنا فقـد اقترب منى مأمور سجن مصر يوسف القطشـة يتفحص القيـد الحـديدى فى يدى أو يتظاهر بتفحصه ، كما أدركت فوراً عندما همس فى أذنى بتلك الكلمات :

— هناك عاصفة خطيرة فى الأفق ، ومن الأفضـل أن تحنوا الرؤوس حتى تمر ..!

قالها وذهب !!

وكان الإنذار الوحيـد الذى تلقيناه ، فاعتقـادى أن يوسف القطشه رغم صرامته وحرصه على تنفيذ الأوامر كان رجـلا ذكياً

يدرك أن ماسوف يحدث قد يؤدى إلى كارثة فعلا ، ولذلك يسجل اعتراضه عليها .

أقول ذلك وأنا فى حذر أن أفسر موقفه بأكثر مما يحتمل لأنه يحمل فى تاريخه الاشتراك مع همت فى عملية تأديب معتقل الواحات قبل ذلك بسنوات .

ثم ونحن نقـترب من الباب الخارجى ونتجه للسيارات ، نلمح ضباط سجن مصر يتوقفون فى أماكنهم ليتولى ضباط آخرون كنا نراهم لأول مرة يتولون المهمة ... مهمة حراستنا .

وآخر نحيل وطويل ، يبتسم ويضحك ويقهقه ويصرخ فى نفس الوقت وفى صوت هستيرى وكلمات نابية ، فيما بعد عرفنا أن اسمه « يونس مرعى » .

وآخر طويل ضخم الجثة ، بارد النظرات . الأوامر تصدر من يده أكثر من فمه . يده تدفع وتهز وتلوح وتشد وتجذب . فيما بعد عرفنا أن اسمه « عبد اللطيف رشدى » .

وثالث ، صوته ناعم رفيع وحركاته ملساء مؤنثة ، ويبريه

كاكى يهتز على رأس حافلة بشعر طويل مجعد . فيما بعد عرفنا أن اسمه « مرجان » .

وتأكد الجو الإرهابى الذى فاجأنا تماماً عندما حاولت أن أحدث « يونس مرعى » أطلب منه استثناء الدكتور فؤاد مرسى والسماح له بالجلوس بجانب سائق السيارة تحاشياً للاهتزاز حيث أنه كان يعانى وقتها من انفصال شبكى بعينيه . ليرفض يونس مرعى ويصرخ فى وجهى ولعنة تخرج من فمه يذكر فيها الأب والأم والجد ...

.. بعدها بدقائق كنا فى العربات المقفلة تماماً . عشرون فى كل سيارة . ستون معتقلا أو مسجوناً على ذمة قضية لم يصدر فيها الحكم بعد ، فى طريقهم صوب المجهول .

.. وبعدها بدقائق أخرى كانت السيارات تتحرك تحيط بها موتوسيكلات مسلحة وسيارات نجدة تعوى ، تخترق بنا القاهرة النائمة الساكنة ... ونبتعد ! .

وشيئاً فشيئاً من خلال التكهن والاستنتاج ، وحركة المرور

وضجة الشوارع ، وحتى رائحة الهواء . كنا ندرك أننا قد خرجنا من القاهرة وأننا نقترب من الريف ، ثم نتوقف أخيراً .

... بعد ذلك وحوالى الثلاث ساعات تمر منذ وقوف السيارات بنا ، تطرق إلى أسماعنا ضجة بعيدة وأصوات خيول وأوامر حادة .

.. وبعد ذلك وحوالى الساعة العاشرة وبعد أن كدنا نختنق من الحر ... بعد أن تورمت معاصمنا من القيود وأقدامنا من ساعات الوقوف الطويلة سمعنا طلقة نارية تدوى فى الفضاء ، ثم ليسكن كل شىء .

... ثم فتح الباب . فتحه « مسعود » السجان النوبى الطويل وتفادى أن ينظر فى وجوهنا ، ولكن لمحت فى عينيه حزناً كبيراً . فذلك الحارس النوبى الطويل ، المندفع الأهوج ، الغليظ القلب والذى كان قد عين لحراستنا فى سجن مصر لكل هذه الصفات ... كان قد تحول وعلى مدى شهور إلى صديق بكل معنى الكلمة . كانت إدارة السجن قد اختارته لأن ملفه يحوى ثمانين جنحة اعتداء على مساجين ، وكنا بالمعاملة الحسنة وبالصبر قد حولناه إلى صديق ونحن نكتشف أنه إنسان بسيط ، يعيش مأساة كل سجان والتى

تتمثل فى أنه يقضى نصف حياته تقريباً داخل السجن . ويعيش مأساة كل إنسان فقير يوجه غلطته ضد من هم أضعف منه لأنه عاجز عن توجيهها ضد مستغليه .

... ومن بعيد سمعنا الضجة من جديد تعود ، ليخرج إسماعيل صبرى وأمين شرف بأمر من مسعود ، لتصل الضجة إلى قمتها ثم تخفت ، يفتح الباب من جديد ، وينزل أحمد نبيل الهلالى ثم أتبعه فى النزول .

وعلى درجات السيارة كنت واجف القلب ، وأحسست بيد « مسعود » تربت على كتفى ، وبتمتمة تخرج من شفتيه لم أتبين منها سوى كلمة « الله » .

.. ونزلت لأعيش « التشريفة » .

— ٧ —

فاجأنى ضوء النهار بعد عتمة السيارة وظلامها ، ولذلك وقفت فى مكانى لحظة حتى تتعود عيناى على نور الشمس المبهر . وكانت لحظة واحدة فقط .

من خلفي هجم فارسان يمتطيان جوادين لأحس ولأول مرة في حياتي بالسياط وهي تنزل على كتفي ورأسي .

.. ودوت الصرخات تأمر :

اجري يا ابن الكلب ...

وجريت ، أو أظن أن هذا مافعلته . فمنذ تلك اللحظة وحتى انتهت التشريفة بعد ذلك بحوالي نصف ساعة كنت أعيش كابوساً دامياً مريعاً ، وساعة بربرية هوجاء . أفعل مايأمرونني به وأتحرك كالآلة دون فهم أو إدراك وقد توقف العقل تماماً عن أي محاولة لاستيعاب ما يحدث .

كالطفل المذعور ، انسحب عقـــــلي من ركنه ، يترك للغريزة أن تقوم هي بمجابهة الموقف الذي عجز هو عن مجابهته وعن فهمه .

... أذكر فقط أني جريت ، وأن فرساناً جروا خلفي وبالسياط ألهبوا رأسي وكتفي . أذكر أيضاً أني اخترقت طريقاً

طويلا مترباً وأنا أعدو ، فى يدى حقيبتى لا أحس بثقلها ، مهمتى كلها أن أتفادى رجالا وقفوا طيلة الطريق فى صفين طويلين يحملون فى أيديهم عصى طويلة غليظة ترتفع تزمجر وتهوى إلى جسدى .

. . . وأذكر أنى كدت عدة مرات أن أسقط ، ولكن غريزة ما تملكتنى دفعت سيقانى لتعدو لتهرب بجسدى من ذلك الجحيم الذى أحاط بى .

. . . ثم لأجد نفسى فجأة وقد تو قفت لا أستطيع أن ألتقط أنفاسى وصدرى يتحشرج وحولى جمهرة من ضباط وجنود ، الكل يصرخ والكل يضرب وواحد يصفعنى بانتظام وهو يأمر :

— اسمك ياابن الـ . . .

— بصوت أعلى .

— اسمك وقل ياأفندم يا (. . .) .

— بصوت أعلى ياابن الـ . .

— اسمك يا ابن الـ ..

— قل أفندم يا (...)

— بصوت أعلى ياابن الـ ..

.. لدقائق طويلة ، وصوتى يخرج مبحوحاً والصفعات تنزل والعصى والكرابيج ... والشتائم .

أذكر أيضاً أن صدرى كان يتحشرج والكلمات مخنوقة لا تريد أن تخرج من الإنهاك والصدمة .. ثم تنبهت لأجد نفسى عارياً لا يستر جسدى شىء وأن السياط والعصى بعد ذلك كانت أشد إيلاماً وعنفاً .

أذكر أيضاً ، أن أمامى كان يربض بناء صغير به شرفة واسعة عليها يجلس بعض رجال فى ملابس مدنية وآخرون فى ملابس عسكرية .

وأن واحداً يجلس فى منتصفهم قال ما معناه :

— صوته غير مسموع . . .

بعدها ازداد وقع السياط والصفعات والعصى . ولحظتها تلاقى بصرى ببصره وعرفته ولكن لم أتذكره إلا بعد ذلك بساعات وعندما انتهى كل شيء ، فتذكرت انه يحمل وجه اللواء اسماعيل همت .

. . . ثم توقف الضرب لحظة ، ليقترب رجل وفى يده ماكينة حلاقة كبيرة أكلت شعر رأسى ثم تحولت تأكل شعر عورتى . ثم عاد الضرب ثانية وبعنف ومعه يد تمتد تحمل لفة طرية وضعت فى يدى ، لفة تشبه الحشيش .

. . وأذكر ايضا أن صوتا أمر من الشرفة :

— يكفى هذا . . .

فطاردتنى الكرابيج والعصى توجهنى جاريا نحو باب مفتوح دخلته وأنا أعدو عاريا . . . وأن حولى وأمامى وخلفى كانت هناك عصى تصطادنى وأن عصاة بالذات نزلت على وسطى لاتوقف لحظة ، وقد فقدت أنفاسى والدوار يتملكنى ، وألم كسكين من نار يخترق ظهرى .

ثم عدوت لان الضربات ازدادت وتجمعت عندما توقفت ، لأتجه تقودني صوب باب بناء مفتوح دخلته جاريا ، لأتعثر وضربة عصا من أخيرة تنزل على رأسي فأقع منطرحا داخل هذا البناء .

أذكر أخيراً أن الضرب توقف فجأة . وأني عندما رفعت بصري عن الأرض سمعت بابا خلفي يغلق وأن شخصا يلبس ملابس غريبة مضحكة مهلهلة صفراء يقترب مني ويمد يده . تأملته في تعجب لأكتشف أنه أمين شرف .

ونهضت أسير بخطوات متعثرة حتى الحائط فأجلس على الأرض أستند إلى هـذا الحائط بظهري ... أحس بالألم طاغياً معربداً ، لأتنفس في عمق .

* * *

لساعات استمرت « التشريفة » . واحداً واحداً من زملائي عاشها ومر بها ، ولم يرحم أحـد ، محمود العسكري العامل النقابي والمصاب بربو حاد ... سعد زهران ذو القدم الخشبية . فؤاد مرسي المصاب بانفصال شبكي . كل واحد مر في نفس الروتين الذي رسم بدقة حتى العنبر . وفي العنبر كنا نلبس تلك اللفة الطرية التي قدموها

لنا بذلة من قماش رمادى أصفر يشبه الجيش مكونة من بنطلون وسترة ثم كاسكتة على الرأس بلون من نفس القماش .

وحتى وراء هـذه الملابس كان هنـاك روتين وكانت خطة ، الرفيع أعطيت له بذلة واسعة . والسمين بذلة ضيقة . والطويل بذلك القصيرة . والقصير بذلة طويلة .

خطة أن يكون الشكل مضحكا هزلياً ، إهانة أخرى تضاف للصفعـات والضرب والحفى والشتائم رسمها حقـد هائل وعقـل شيطانى .

... لمدة ساعات استمرت «التشريفة» ، فقد كان هذا هو اسمها كما سماها حسن منير ، مأمور المعتقل بسخريته المريضة .

ليمتلئ هذا العنبر شيئاً فشيئاً .. ضجة وصرخات وأوامر ثم ينفتح الباب ويندفع زميل .

لمـدة ساعات امتهن شرف وكرامة وأجساد رجال من خيرة رجال هذا البلد ، رجال لم تسرق ولم تستغل ولم تمالئ الاستعمار ولم تعمل بالسوق السوداء ولم تختلس أو ترتش .. رجال فيهم خلاصة

فكر على وتضال طويل وحب متصل لوطنهم .. رجال يؤمنون بحق الإنسان فى حياة كريمة ومجتمع نظيف عادل ودنيا حرة ديمقراطية . رجال كل جريمتهم أنهم يرفعون الاشتراكية شعاراً ويناضلون من أجلها .

.. على مدى ساعات تهشمت ضلوع وتحطمت أطراف وحدث أكثر من نزيف داخلى وأوشك أكثر من واحد على الموت .

وفى الخارج يجلس بعض أفراد فى شرفة عالية يتضاحكون ويرقبون فى تشف ، يستزيدون ويحضرون لأيام أخرى مقبلة .

صنف آخر من الرجال ونوع معين من البشر ، فكل واحد خلفه تاريخ طويل من ريب وشبهات وقاذورات .

* * *

لساعات جلسنا وظهورنا للحائط نلعق جروحنا حتى كان المساء ليظل باب العنبر مغلقاً ، عنبر طويل واسع ، كصندوق مستطيل فى أوله باب مصفح وفى آخره دورة مياه . وفى جنباته نوافذ كبيرة

بقضبان حديدية دخـــــل منهـا برد الشتاء لنلتصق وننام على أسفلت العنبر .

وفى تلك الليـلة استيقظت عند الفجر ، لأسمع أنات من حولى وتأوهات ، كان الـكل نياما ولـكن من الصدور كان الألم يعوى ويزفر ويتأوه .

أصوات كنت أسمعها المرة الأولى فى حياتى ، وظللت أسمعها فيما بعـد وطيلة أيام أبو زعبل . ورفعت بصرى أبحث عن السماء بين القضبان .. هل انتهى الأمر ، أم أنها البداية ؟! .

شىء فى قلبى حدثنى بأنها البداية .

ونمت والأمل مخنوق فى صدرى .

* * *

بعد الفجر استيقظت ثانية أسترجع ماحـدث ، وطفر سؤال فى ذهنى ...

كل شىء جرى بدقة ووحشية ودموية وغضب جامح .

وكان السؤال :

لماذا لم تكن هناك تلك الدقة وذلك الغضب الجامح وتلك الدموية فى ظروف أخرى تستدعيها .

ظروف هدد فيها العدو والصهيونية أرض الوطن واستباحوها ووطئوها .

ظروف أخرى . . وكم تكررت !

وبالرغم منى ابتسمت فى مرارة !

ابتسمت وأنا أذكر ذلك البيت البليغ . . « أسـد على وفى الحروب نعامة » !

— ٨ —

بعد ذلك ، وعلى مدى أيام أبو زعبل الدامية ، استمرت التشريفة تستقبل كل وافد جديد قررت السلطات تأديبه .. على مدى الشهور استقبلت التشريفة عـدة مئات من المعتقلين . ومن مختلف طبقات المجتمع ومن كافة أرجاء مصر ، وعلى باب « الأوردى »

جلس همت يرشف قهوته ويرقب متشفياً مثقفين وعمالا وطلبة وفلاحين تطحنهم التشريفة ، جلس همت ساخراً يرقب أسماء هى فى الواقع سمات لمصر الحديثة ولمصر المستقبل ، تتمرغ فى دمائها وبإشارة من يده .

الدكتور لويس عوض الأستاذ والصحفى والأديب . . حسن فؤاد الفنان والصحفى والكاتب .. الدكتور عبد ارزاق حسن الأستاذ فى الاقتصاد .. سعيد خيال القاضى وعضو مجلس السلام العالمى .. فوزى منصور الدكتور فى الاقتصاد .. فيليب جلاب الصحفى .. الدكتور عبدالعظيم أنيس أستاذ الرياضة البحتة والصحفى .. زهدى رسام الكاريكاتير والفنان اللامع .. منير موافى الضابط بالقوات المسلحة وأحد أبطال بور سعيد .. فؤاد حداد الشاعر ..

أسماء .. وأسماء .. لعدة مئات .

أسماء لرؤساء مجالس نقابات عمالية وأعضاء تمتد من أسوان وكوم امبو حتى شبرا الخيمة والمحلة وكفر الدوار وسباهى وعنابر السكك الحديد :

وأسماء لفلاحين من قرى الصعيد ونجوع الدلتا وكفور ريف مصر كله .

أسماء لمصريين شرفاء ، كلها وبأشارة من اليد طبقاً لرغبات المباحث العامة كانت تتعرض لما حوته التشريفة من بشاعة .

بشاعة وصلت إلى حد سقوط الدكتور فريد حداد فى إحدى التشريفات قتيلا .. وسقوط شهدى عطية الشافعى فى تشريفة أخرى .

والموت لم يمنع استمرار التشريفة . ببساطة حضر طبيب ليمان أبو زعبل ليكتب بعد فحص الجثة أن فريد وشهدى ماتا موتاً طبيعياً من هبوط فى القلب .. ثم تستمر التشريفة ! ..

كانت عجلة البربرية تدور وكل شىء حتى شرف المهنة كان يلوث من أجلها .

وحتى أواخر يونيو عام ١٩٦٠ استمرت التشريفة لا تتوقف تزداد اتقاناً وتزداد وحشية وتزداد جنوناً . ومع « التشريفة »

شهد « أوردى » أبو زعبل أصنافاً جديدة وغريبة ومريضة من تعذيب بربرى .

ليلة التفتيش .. الزحف المقـــدس .. طابور الصباح .. التأديب .. يوم الغناء .. الأربعاء الدامى .. ليلة رأس السنة .. هجوم المكسوس ..

وعشرات من قصص مجنونة دامية لا يتصورها خيال . ولا يمكن لمصرى أن يتصور أنها حدثت على أرض مصر . قصص يجب أن تحكى ، لكيلا تحدث بعد ذلك قط ..

التعذيب

— ١ —

من الصعب أن يدرك الإنسان ما تم داخل « أوردى » أبو زعبل ، وما حدث فى الجبل ، ما لم يتفحص تلك الشخصيات التى عهد إليها تنفيذ مخطط التعذيب وابتكار أصنافه .

ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف تيسر تنفيذ هذا المخطط ، وكيف أمكن القيام بعمليات تعذيب جماعية وصلت إلى حد القتل ، فى مكان لا يبعد عن القاهرة سوى عدة كيلومترات دون أن يلم بصورة ولو خاطفة عن شكل « الأوردى » ونوع بنائه ، وعن الجبل وموقعه .

* * *

يقع ليمان أبو زعبل على بعد عدة مئات من الأمتار من الطريق الزراعى الذى يمتد خارجا من أطراف الزيتون وعزبة متجها صوب الخانكة ومحطة أبو زعبل اللاسلكية . ويكفى حتى تصل لليمان

أن تنزل هذا الطريق الزراعى لتنحرف فى طريق آخر ضيق ، ولتسير عدة دقائق لتجد نفسك فجأة داخل منطقة الليمان .

وعندها تتغير الصورة تماماً ، فأنت تجد نفسك فى مكان هادىء ساكن ، وإن كنت تحس بأن تحت هذا الهدوء والسكون يكمن شىء آخر . ثم تكفى بعدها عدة خطوات لتكتشف ذلك الشىء . عدة آلاف من البشر يتكدسون فى مكان واحد محدود يتحركون دون جلبة ويعيشون فى صمت .

. . . والمكان الواحد المحدود هذا ، يبدأ بأبنية متفرقة صغيرة هى فيلات الضباط ، ثم بناء بسور شاهق وبوابة كبيرة هى المدخل لليمان ، ثم وقد تركت غرف الإدارة ، فإن بصرك يصطدم بالعنابر التى يحتجز فيها النزلاء . أبنية على هيئة مستطيل كبير بأبواب حديدية ونوافذ تحددها قضبان وكلها من طابق واحد .

فعلى عكس سجون أخرى وليمانات كليمان طرة مثلا واصلاحية الرجال بالقناطر وأغلب سجون مصر ، فإن ليمان أبو زعبل يتفرد بتلك العنابر الواسعة التى تستطيع أن تضم عشرات النزلاء معاً وفى وقت واحد . والبناء كله من تصميم واحد تقريباً . لكل عنبر

نوافذ حديدية بقبضان غليظة ، ولكل عنبر مدخل واحد هو باب حديدى مصفح من جهة ، يقابله من الجهة الأخرى دورة مياه .

وعلى أرض العنبر لا يرزح إلا الخلاء ... رصيفان متقابلان فقط يمتدان بامتداد العنـــــبر كأرصفة الشوارع وبينهما ممر كالشارع ذاته .

تصميم بسيط ، يستطيع أن يضم أكبر عدد من النزلاء ... ويستطيع أن يضمهم أياما دون حاجة لخروجهم . فدورة المياه ملحقة بالعنبر ، والرصيفان لنوم المساجين ، والشارع أو الممر الذى يتوسطهما لمرور النزلاء ، تصميم بسيط وبدائى ، كعنابر العبيد أيام تجارة العبيـــد !

* * *

أما مكان الليمان ، فقد اختير لقربه من الجبل . والجبل اسم على غير مسمى . فبدل أن يرتفع فهو ينخفض مجرد فجوات واسعة عميقة فى بطن الأرض وتمتد متسعة لعدة كيلومترات ، كعيون ضخمة قد أفرغت من حدقاتها .

والجبل ، مكون من حجارة البازلت . حجارة صفراء من الخارج بفعل الرمال وعوامل التعرية ، وسوداء من الداخل . والحجارة تلك تقطع من حوافى الجبل ، أو أطراف هذه العيون الفاغرة . . . بالديناميت وبالعتلات ، لتقسم الفجوات على مر السنين حتى يختفى البازلت ، فيبدأ العمل فى حفرة ثانية .

وعندما تهوى تلك الكتل البازلتية الضخمة ، فإن سواعد النزلاء بالشواكيش والقواريم ، تعمل على تحطيمها إلى كتل صغيرة ، تحمل فيما بعد إلى أجهزة ميكانيكية فى مدخل الليمان حيث تسحق وتكون ذلك البازلت الذى يغطى شوارع مصر وطرقها .

وهكذا يستفيد المجتمع المصرى من الخارجين عليه ، لتكون الجريمة فى النهاية مفيدة !

* * *

وهذه السواعد . . . سواعد النزلاء التى عملت عشرات السنين ، كانت أبدا سواعد سجناء الليمان . الذين يقطعون الحجر دون مقابل تنفيذاً لأحكام السجن بالأشغال الشاقة ، والذين يرتدون ملابس زرقاء هى دليل الحكم بهذه الأشغال الشاقة ، مكونة من بنطلون

وسترة وكاسكته ، وفى القدم يسكن حذاء أسود يسمى « بنص » ، شرطه الوحيد إلى جانب اللون الأسود أن يخلو من رباط . والحجة أن الرباط من الممكن أن يستعمله النزيل ليشنق به نفسه . . . ذلك النزيل الذى يستعمل طيلة اليوم أدوات وديناميت وعتلات تصلح لأكثر من مجزرة ! . .

ويقال ، أن نزلاء « أبو زعبل » يختلفون عن نزلاء طرة . ففى طرة ينزل من حكم عليه فى جرائم الثأر والشرف وكبار المعلمين من تجار المخدرات . أما فى أبو زعبل فالنزلاء درجة ثانية الذى اعتادوا الإجرام والقتل العادى وصغار تجار المخدرات وجنايات الاختلاس والسرقة . ولهذا اختير لهم « بازلت » ليقطعوه من بطن الجبل ، بدلا من حجارة طرة البيضاء الجيرية ، لأنه أقسى وأشد صلابة وشظاياه سامة . كما أن عنابر أبوزعبل ضمتهم دون تفرقة كجماعات ، بعكس زنازين طرة التى يمكن أن تضم أسرة . فحتى السجون فيها المنطق الطبقى .

* * *

والعقاب للاشغال الشاقة هو العمل فى الجبل . والعمل فيه سواء

فى أبو زعبل أو طرة هو قطع الحجارة . وهكذا يتجمع النزلاء كل صباح ليسيروا فى صفوف أربعة يتجهون للجبل تحت حراسة مشددة . وفى هذا الجبل وحتى الغروب يتم العمل تحت نفس الحراسة المشددة التى يتولاها ضباط مسلحون يركبون الخيل وسجانة يشرفون على العمل ويراقبون النزلاء ، وحرس مسلح بمدافع رشاشة وبنادق سريعة الطلقات . يحيطون بالسجناء خلال ذهابهم وإيابهم من الجبل . ويحطيون بالجبل ذاته خلال فترة العمل مهمتهم إطلاق الرصاص فوراً عند محاولة سجين الخروج من منطقة العمل . وإطلاق الرصاص فى المليان وفى جموع النزلاء فى حالة سماع نفير معين يسمى « السكبسة » ويكون عند الهرب أو التمرد الجماعى أو عدم الانصياع للاوامر .

والعمل فى الجبل له قواعد ولائحة تحكمه ، المريض لايعمل ، وساعات العمل محدودة بينها فترة راحة ، وأيام الجمع والأعياد أجازات وكذلك أيام الأمطار والعواصف وإن كان السبب فى هذه الحالة الخوف من هروب سجين مستغلا ضعف الرؤية .

ولكن اللائحة شىء والواقع شىء آخر . فالنزيل الثرى لا يعمل إطلاقاً ، بل الرشوة للحراس حتى يتركوه وشأنه ، ومرتب للفقراء من النزلاء حتى يعملوا بدله ويقدموا « المقطوعية » من الحجارة

المقررة عليه . وهذه المقطوعية تتحدد بعدد من أكوام الحجارة التي تقطع وتحمل في غلقان جلدية سميكة يقسلمها النزيل ويسلمها آخر اليوم ، ويسجل الحارس في ورقة عدد الغلقان حتى تتم المقطوعية .

والنزيل في الواقع يفضل الخروج للجبل على البقاء في عنابر الليمان . ففي الجبل يتم وصول المهربات وأساساً الشاى الجاف والسكر والسجائر والنقود والحشيش والأفيون وأمواس الحلاقة ، وفيه يتم توزيع هذه المهربات وقبض ثمنها . والثمن عامة أما نقود أو سجائر . فالسجائر تعتبر عملة مضمونة ومتعارف عليها في السجون .

... أما كيف تصل هذه المهربات للنزلاء ، وكيف تتسرب بعد ذلك في الليمان ، رغم عمليات التفتيش عند الخروج من الجبل ؟!

فالإجابة بسيطة للغاية ، والإجابة هي المال . بالنقود يرشى الحراس ويغمض الضباط عيونهم . إذا ما رفضت الرشوة وأصرت بعض العيون على الشدة في تنفيذ القانون ، فالجبل مكان مناسب ليحدث حادث مناسب قد يصل إلى حد القتل .

وسائل حمل المهربات عديدة ، أشهرها أن يدفع النزيل

المتخصص فى التهريب بما يهربه بعد لفه بأكياس من النايلون فى المستقيم وحتى الامعاء .

بعينى وجدت نزيلا فى سجن مصر أصر ضابط على مراقبته فأمر بغسيل معدته ، ليخرج من أحشـائه عشرين علبة سجائر وكتلة حشيش وكمية أفيون وعدة أمواس حلاقه وفـكة بلغت عـدة جنيهات .

* * *

بعد هذا وعند الرجوع ، وعندما تغلق العنابر ، يبدأ النزلاء ليلة جديدة من ليالى السجون الطويلة . والمال أيضاً هو الحاكم .

فالشذوذ الجنسى بثمن . وتحضير الطعام وطبخه على مواقد مهربة بثمن . وتحضير السهرات والجوز بثمن . ومن النوافذ ذات القضبان يتسرب دخان الحشيش والأفيون ومن أرضية العنبر تخرج المهربات على كافة أشـكالها . ومن تحت الأرصفة والفجوات المستترة تظهر الراديوهات والجوز .

ويكون العشاء والمزاج للثرى . . وللفقير « اليمك » .

يكون للثرى الراحة فى الجبـل وفى المنبر .. والفقـير يعمل بالأجر والثمن .

نفس القواعد ، ونفس المجتمع ، ونفس اللعبة .

وهكذا يتم « التهذيب والتقويم والإصلاح » .

.. ولـكن هذه قصة ليمان أبو زعبل ، وليست قصتنا .

قصتنا فى أوردى أبو زعبل كانت مختلفة ، وعملنا فى الجبل حكمته قواعد أخرى .

قصتنا تستدعى أن نحـكى ماهو الأوردى .

« فالأوردى » كان دنيا أخرى غير الليمان .

وأن نحـكى جبلنا .

فالجبل الذى حكمتنا قواعده ، كان جبلا آخر بقواعد أخرى .

قصتنا تدعو لأن نحـكى عن تلك الشخصيات التى حكمت « الأوردى » .

فاعتقادى والصورة بدأت تـكتمل ، أن القصة البربرية قـد حانت روايتها .

وتستوجب أن نبدأ بوصف « الأوردى » ففيه وبين جدرانه وقضبانه عشنا أيامنا الدموية .

— ٢ —

لو تصورتم مربعاً كبيراً فى أحشائه عـدة أبنية مستطيلة من طابق واحد ، لتصورتم « الأوردى » المربع هو سور شاهق الارتفاع أصفر اللون يبلغ ارتفاعه عدة أمتار ويلتف حول المعتقل كسوار . وهذا السور أيضاً وفى كل زاوية من زواياه الأربع ترتفع منصة خشبية يقف حارس مدجج بالسلاح وعادة هـذا السلاح مدفع رشاش ، يقف ليل نهار .

ونتيجة لارتفاع هذه المنصات الخشبية فوق السور بعدة أمتار ، فالحراس الأربعة يستطيعون أن يرقبوا مايحدث داخل المعتقل بمنتهى السهولة والبساطة كما يستطيعوا التحكم برشاشاتهم فى أى حركة أو تصرف . ويصل الحراس إلى منصاتهم عن طريق سلم يقع خارج

السور . أى لا سبيل لمن بداخل المعتقل للخروج إلا باب واحد يقع فى طرفه الشرقى . باب خشبي ضخم مصفح هو الآخر تحت حراسة مشددة ودائمة .

والأبنية المستطيلة ، هى العنابر التى حولها يلتف السور ، وهى من طابق واحد . فى طرف باب ، وفى الطرف الآخر دورة مياه . وبها عدة نوافذ حديدية بقضبان حديدية . والعنابر صورة مصغرة عن عنابر الليمان ، ولكنها تستطيع أن تحوى عدة مئات كل عنبر يستطيع أن يحوى ما بين خمسين ومائة سجين . ومجموع عنابر الأوردى المخصصة للنزلاء ستة عنابر غير أبنية المخازن وحمام .

ونظام العنابر نفس النظام . رصيفان متقابلان يمتدان بامتداد العنبر عليهما ينام النزلاء ، وبينهما ممر بمثابة طريق يصل ما بين الباب ودورة المياه .

فكرة هندسية بسيطة وبدائية . ولو كانت فى الماضى لصلحت عنابر عبيد ، ولو كانت لغير الإنسان لجاز أن تضم دواب ولكنها صورة رغم بساطتها فيها يمكن استحالة الهرب وسهولة الحراسة بأقل عدد من الحراس وبساطة ويسر المراقبة .

فيكفى أن تقفل العنابر ليستطيع سجان واحد أن يراقب عدة مئات من خلال العين السحرية الموجودة بباب العنبر ويكفى أن يتحرك أى شخص فى فناء « الأوردى » ليلمحه وليشاهده الحراس من على منصاتهم الخشبية . ويكفى أن تحدث أى ضجة أو صوت غير طبيعى فى عنبر من العنابر لتحمله النوافذ غير المغطاة إلا بقضبانها الحديدية إلى أسماع الحراس .

بعد ذلك ، ليس فى الأوردى ، سوى بناء آخر به غرفة واسعة تصلح لأى استعمال ، وأخرى بها عدة أدشاش لحمام جماعى ، ثم عدة زنازين متجاورة مساحتها متران فى مترين مخصصة كحبس انفرادى وتأديب لمن شاءوا له التأديب .

ثم لا شىء . . . ! سوى سؤال قد يخطر على البال .

لماذا بنى « الأوردى » والليمان موجود !

ويقال أن عبارة الأوردى تعنى بالتركية الملحق . والواضح أن اللغة التركية بقيت آثارها فى الشتائم والسجون ! .

ويعنى هذا أن « الأوردى » ملحق الليمان استعمل كعزل صحى

أحياناً ، وأحياناً كمكان لعزل النزلاء الجدد حتى يتم ترويضهم وتدريبهم على نظام العمل فى الجبل والحياة فى الليمان .

وأحياناً أخرى ، استعمل كعزل خاص لتأديب مجموعة من السجناء .

فابتعاد الأوردى عن الليمان وتطرفه وانعزاله وسهولة عزله عن الخارج . . . كل ذلك يقدم « الأوردى » كسجن مثالى لجمع بعض المساجين لعقاب معين .

وتحكى أساطير مصلحة السجون ، أن « الأوردى » فى عهد فاروق استعمل فى عملية وحشية . كان فاروق قد قرر بناء قصر المنتزه بالأسكندرية وتحويل رمال المعمورة إلى حدائق . وكان أن جمعت المصلحة عدة مئات من المساجين فى « الأوردى » لعملية تطويع وحشية تمهيداً للعمل الشاق الذى تم فيما بعد والذى مات خلاله بالفعل عشرات من العمل المضنى .

بعد هذه الأسطورة ، لم يشهد « الأوردى » عملية تأديب جماعية سوى فى عام ١٩٥٤ عندما استعمل لأول مرة كمعتقل للشيوعيين وأن استمر التأديب عدة أيام فقط .

. . . ثم كان استعماله الثالث والفريد ، فى حالتنا . « فهمت » وكيل مصلحة السجون هو الذى أشار باختيار الأوردى وصلاحيته لتصفية الشيوعيين . لأن همت نفسه كان قد أشرف من قبل على عملية التأديب فى عام ١٩٥٤ .

. . . الفرق الوحيد أن « الضوء الأخضر » وفى المرة الثانية كان قد أضىء . . . والباب قد فتح للتعذيب دون رابط أو حدود .

. . . وكما اختير المكان بعناية ، اختير الذين عهد إليهم بعملية التنفيذ بنفس العناية والدقة فى الاختيار .

— ٣ —

يوم فى أواخر شهر نوفمبر ١٩٥٩

فى الصباح

باب عنبر « ١ » يفتح . يقف كل المعتقلين بانتباه كما تعلموا . يصدر الأمر بخروج خمسة عشر معتقلا . من رقم « ١ » حتى رقم « ١٥ » كما هو مطبوع على ستراتهم بطلاء أسود ، يخرج الخمسة عشر معتقلا وهم يجرون ، من العنبر حتى باب الأوردى . خرجوا

يجرون كما تعلموا ، وكالعادة أيضاً نزلت على ظهورهم الشوم والمراوات حتى توقفوا فى صفوف منتظمة ، كل صف من خمسة . الكل فى ملابس السجن الخشنة والأقدام حافية .

أمام الخمسة عشر معتقلا يقف همت وحوله بعض ضباط المعتقل وخلفهم عشرون جنديا مسلحين بمدافع رشاشة . جنود يضعون شريطا أحمر فى ساعدهم الأيمن علامة على أنهم الحرس الخاص لهمت. فهمت يحب المظاهر .

صمت يسود ثوانى ، ثم يتكلم همت باسما :

أنتم ضعاف الصحة . تحتاجون إلى رياضة .

إشارة من يده ، فيتقدم صول يصاحب دائماً همت فى تنقلاته ومعروف بصلة شخصية وقوية به .

الصول يصرخ .

— يمين در .

بعضنا يستدير نحو اليمين والبعض نحو اليسار . الخطأ يحدث لأن الأمر جديد علينا . العصى تنزل والصرخة تعلو من جديد .

— يمين در .

الـكل يستدير نحو اليمين .

— بالخطوة السريعة . مارش .

الـكل يجرى فى شبه حلقة تقودهم العصى والشوم . وبعد خمس عشرة دقيقة يصدر الأمر بالتوقف . همت يرمق المتعتقلين باسما .

بعد فترة ستتحسن صحتكم بالتأكيد . ما تحتاجونه هو الرياضة .

ثم يلتفت إلى مأمور السجن حسن منير قائلا :

— طابور الرياضة ياحسن الذى اتفقنا عليه . الأولاد أجسادهم طرية يجب أن تشتد .

الأمر يصدر بدخول العنبر . الـكل يجرى والعصى تنزل على الظهور من جديد .

الاسم : اللواء اسماعيل همت ، وكيل مصلحة السجون .

* * *

١٦ فبراير ١٩٦٠

في الصباح

عنبر « ١ » يقف في ثلاثة صفوف ، كل صف يحوى عشرين معتقلا ، عنبر « ١ » يقف في ثلاثة صفوف «انتباه» ، وعلى الأرض أمامه يجلس بقية المعتقل جلسة المسجون العادية ، الجسد قد انخفض والرأس مطرق في الأرض والأيدى موضوعة على الركب ، والأقدام تئن تحمل الجسد المنثنى المحرم أن يلمس الأرض ، عدة مئات جلسوا هذه الجلسة أمام عنبر « ١ » ، « فالأوردى » قد امتلأ بعدد كبير من المعتقلين حضروا من السجون والمعتقلات الأخرى .

أمام عنبر « ١ » يقف المأمور «حسن» وحوله ضباط المعتقل وعدد من الجنود والسجانة يحملون بنادق وعصى غليظة ، هذه العصى الغليظة يسميها المعتقلون « شوم » . هذه الشوم تورد للمعتقل بمعدل مائة شومة شهرياً لاستبدال مايتحطم على أجساد المعتقلين .

عنبر « ١ » لايعرف سبب هذا التجمع ، ولكن الكل متوتر
شيء خطير سوف يحدث .

« حسن » يخاطب عنبر « ١ » :

أنا مبسوط منكم يا أولاد . ولذلك فقد قررت أن أعلمكم
الغناء . أتعرفون أغنية « جمـــــال يامثال الوطنية » ! هيا
يا اولاد غنوا .

دون اتفاق مسبق ، ورغم المفاجأة ، لايصدر صوت واحد من
عنبر « ١ » . الكل فهم المقصود ، أغنية ثم أخرى ثم ثالثة ...
هتاف ثم ثان ثم ثالث ... المقصود تحطيم عنبر « ١ » وتحطيم المعتقل
عنبر « ١ » يعتبر قيادة لبقية العنابر .

بعدها ... بعد الغناء ، تكون المقاومة انتهت والصمود تلاشى
تكون التصفية السياسية قد تمت

غنوا ياأولاد ... وإلا سأغضب منكم !

لاصوت ولاغناء . الجو يزداد توتراً . الجنود والحرس يقتربون
مشهرين الأسلحة والعصى .

« حسن » يشير بيده كيفما اتجهت ، اليد تتجه صوب الدكتور إسماعيل صبرى الذى يقف بالصف الأول .

غنى ياولد !

يخرج إسماعيل من الصف ، الصوت يخرج من فمه عالياً يقول :

— أى أغنية وطنيـة مكانها الخارج ، حيث الحرية . نحن كوطنيين نتشرف بغناء أغانى وطننا الوطنيـة ولـكننا نرفض أن نغنيها تحت ظل الإرهاب . نحن نرفض أن نغنى تحت ظل ارشاشات والأسلحة والعصى ، نحن نرفض أن نغنى بالأمر !

ألفاظ أخرى تصدر من المـأمور « حسن » نابية قذرة عاهرة . العصى والشوم كلها تنهال على إسماعيل ، إسماعيـل يسقط ورأسه يسيل منه الدماء ، إسماعيل ينطرح ورأسه مشجوج والضربات تنهال بجنون عليه ، صرخة واحدة لاتخرج من فم إسماعيل .

بعدها كان ضرب العنبر كله . ثم يوم الأربعاء الدامى فى الجبل يوم ١٦ فبراير ، كما سماه عنبر « ١ » ، يومها أشرف إسماعيل على

الموت وكذلك أشرف عـدد آخرون وأغمى على ثلاثين معتقلا ، كلهم من عنبر « ١ » .

ولكن أحداً لم يغن فى ذلك اليوم أو بعـده ، لقـــد فشلت المؤامرة .

بعدها لم يعاود « حسن » محاولته ، فقد كان معنى المحاولة أن يقتل كل فرد فى « الأوردى » .

الاسم : الرائد حسن منير ، مأمور « أوردى » أبو زعبل .

* * *

يوم فى شهر ابريل ، ١٩٦٠

الساعة الثانية ليلا

مفاجأة فى منتصف الليـــــل ، العنابر تفتح فجأة واحداً بعد الآخر والعصى تنهـال على المعتقلين النيـام ، وصرخات تدوى فى الظلام .

عندما يفتح عنبر « ١ » أخيراً كان الجميع مستيقظاً متأهباً ، الحراس يدخلون والعصى والشوم تنزل على الرؤوس والظهور والأجساد .

والسبب أن إدارة المعتقل اكتشفت أن المجلة الهوائية «انتباه» التى يحررها المعتقلون فى أذهانهم ويصدرونها بأفواههم قد صدرت نفس الليلة وسمعتها كل العنابر .

الضرب يتركز طويلا فى عنبر (١) لأن الإدارة تعرف أو تشك أن رئاسة التحرير المجلة فى هذا العنبر .

الاكتشاف تم عندما سمع أحد السجانة صوت رفيق يقدم التحليل السياسى الأسبوعى ، ليكتشف وهو يسترق السمع خلف الجدران أن الأمر يحدث فى كل العنابر وفى نفس الوقت .

قائد الهجوم الليلى الضابط (يونس) ، طيلة الضرب الوحشى (يونس) يضحك ضحكات هستيرية ويشوح يشير بيديه فى جنون ، من الواضح أنه تعاطى شيئاً ، لأن ضحكاته لا تتوقف والكلمات والشتائم النابية تخرج غريبة هوجاء ثقيلة من فمه .

كل المقبر يعلم ، لماذا سبب هذا الهجوم الليلى ، وكذلك يعلم سبب اختيار (يونس) لهذه العملية بالذات ، كان التحليل السياسى يعلن استشهد الدكتور فريد حداد فى الصباح ، وأن الذى سبب الوفاة كسر فى الجمجمة عندما هوت عليها شومة ، القاتل كما أعلن التحليل السياسى هو (يونس) .

أعلن التحليل السياسى أيضاً أن طبيب اللبمان الدكتور كمال حضر للكشف على الجثة ليتجاهل الرأس المشجوج المفتوح والنخاع الذى سال والدماء ليكتب (وفاة طبيعية أثر هبوط فى القلب) !

الدكتور (كمال) — وبقية اللقب غير معروف — طبيب فى مصلحة السجون ، والشهيد طبيب أيضاً ، الشهيد من حى شبرا ومتزوج ، الشهيد محبوب فى الحى لأنه ومن ماله الخاص أنشأ مستوصفاً مجانياً للفقراء يعالجهم فيه وبنفسه ، والشهيد أيضاً وطنى وماركسى معروف جماهيرياً .

الاسم : يونس مرعى ، ضابط بمعتقل الأوردى .

* * *

يوم فى يونيو ، ١٩٦٠

الصباح

تشريفة جديدة ، لدفعة جديدة .

فى تشريفة أبريل أستشهد الدكتور فريد حداد .

وفى هذه التشريفة ، تشريفة يونيو ، سوف يستشهد رفيق جديد .
« شهدى » عار تماما وراكع على الأرض وعلى ظهره تنزل عصى غليظة من عدة أشخاص . واحد أسمه عبد السلام ، وهو جندى سجان .. واحد إسمه « مطاوع » وهو صول الأوردى .
واحد ثالث إسمه « عبد اللطيف » وهو ضابط . عبد اللطيف مارد قوى الجسم ملىء بالضلات ، لذا ضربات العصى قوية تكاد تحطم الضلوع .

العصا لاتتوقف . تعلو وتهبط لان شهدى يرفض أن يقول ما يطلبة منه « عبد اللطيف » المطلوب أن يقول شهدى « أنا مرة » .. هكذا طلب عبداللطيف ولكن شهدى يرفض ولا ينبث ببنت شفة .

شهدى ، رجل ماركسى ، ولذلك فهو يؤمن بمساواة الرجل والمرأة . ويؤمن بأن المرأة نصف المجتمع ، لـكن شهدى كرجل ماركسى يعلم أن عبد المقصود يريد اذلاله . يريد تحطيم معنوياته . المقصود أن ينهار أمام نفسه وأمام زملائه وأمام همت الذى جاس فى الشرفة يتفرج ومعه « الحلوانى » ورجل بملابس مدنية من المباحث العامة .

العصى تعلو وتهبط ولـكن صوتا واحدا لايخرج من فم «شهدى» ، الصمت مقاومة .

فجأة يتوقف (عبد اللطيف) عن الضرب فقد انطرح جسد (شهدى) العارى على الأرض . من جديد يحضر الطبيب (كال) ويكتب (وفاة طبيعية نتيجة لهبوط فى القلب) .

لقد مات سهدى ، تاريخه مجلة الجماهير اللجنة الوطنية للطلبة والعمال والحركة الشيوعية المصرية وعشرات من الـكتب فى الأشتراكية والوطنية .

لقد مات شهدى . عائلته أب عجوز وزوجة وابنة صغيرة فى عمر الزهور اسمها حنان

لقد مات شهدى ، ليصرف رجلا من حضر يتفرج ويستمتع بالتشريفة وعلى رأسهم همت والحلوانى ورجل المباحث العامة .

أما القاتل فقد وقف صامتاً يحس بأن هـذه المرة ليست ككل مرة .

اسم القاتل ...

الاسم : عبد اللطيف رشدى ، ضابط بمعتقل الأوردى .

* * *

يوم فى شهر مايو ، ١٩٦٠

الصباح

كل المعتقل يأتى بالحركات الرياضية ، ألم يقل (همت) أنها لتحسين الصحة ؟!.

على الأرض استلقى عدة مئات ، عنبر بعد عنبر ، ستة عنابر . المطلوب أن يركعوا ووجوههم صوب الأرض ، ثم يرفعوا أجسادهم

بسواعدهم وهكذا دواليك ، اسم هـذه الحركة الرياضيـة (ضغط) . ولـكن المشـكلة أن كل معتقل عليـه أن يأتيها ودون توقف حتى يأمر الضابط بالتوقف .

معنى ذلك إعجاز وتعجيز . ولذلك فإن الجميع عادة ينهار بعـد عدة مرات ، فالجميع جوعى ومنهـكون ، الطعام عدة حبات من فول وثلاثة أرغفة من خبز ، والعمل قاس فى الجبل .

إعجاز وتعجيز ، ورغم ذلك فعندما لا يستطيع المعتقـلون أن يرفعوا أجسادهم (فرجان) يأمر الحراس والسجانة بأن يسـيروا على ظهور المعتقلين ويقفزوا من فوق جسد إلى آخر .

بعض المعتقلين يصيبه الإغماء وعنـدئذ يأمر (مرجان) بضربهم حتى يفيقوا .

الحراس يضحكون ولـكن مرجان لا يضحك ، مرجان قل أن يضحـك ، عادة يضحـك على مرجان زملاؤه ويضحـك الحراس ، ويضحك عليه أيضاً وفى الخفاء المعتقلون .

فرجان شعره مجعد طويل بقصة تنزل على جبينه ، و (البيريه)

دائماً مائل على رأسه ، ورائحة الكولونيا تفوح بعنف منه ، وجسده إذا ماسار فهو يتمايل ، وإذا مااستقر فوق الحصان فهو يهتز ، يسمى المعتقلون مرجان باسم (مرجانة) ولا يعرفون قمية اللقب .

الاسم : مرجان ، ضابط بمعتقل الأوردى .

* * *

يوم فى أواخر يونيو ، ١٩٦٠

— نريد أن نقول لك أنك الوحيد الذى قاومت تنفيذ التعذيب نحن نسميك (واحة الديمقراطية) ، كان اليوم الذى تتولى فيه النوبتجية ننام فيه دون قلق ونعمل فى الجبل دون إجهاد ونضرب بطريقة شكلية .

ولكننا لا ندرك بعد كيف استطعت أن تقف فى وجه هذا الطوفان المجنون البربرى ، ولا ندرك لماذا لم يزحك أو يستبعدك أو يستبدلك أو يبعدك وهو يرى تصرفك ؟ ! .

هل لأنك زوج سعيد ؟ ! . هل لأنك أب ، هل لأن ابنتك

(راقية) طفلة جميلة رقيقة ، هل لأن والد زوجتك فنان مرهف ، هل لأن زوجتك تعمل فى مدرسة فرنسية ذات آراء متحضرة ، هل لأنك تكره العنف .

أم أن هناك سبباً آخر ... وهدفاً لاندريه ... ودوراً مرسوماً لك فى اتقان ؟ !

ففى أمريكا وقد استعملوا علم النفس فى التعذيب بقصد الاستجواب ، اكتشفوا فكرة (واحد يضرب وواحد يظهر اعتراضه على الضرب) . واحد يضرب وواحد يعطى سيجارة ، واحد يضرب وواحد يعد بالرحمة . وعندها يكون التشتت والاعتراف وأيضاً الانهيار !

أرجو يا (سامى) أن تغفر للمعتقلين شكوكهم ، فالشك سلاح لن نتخلى عنه ونحن فى أيدى قتلة وسفاحين .

أرجو يا (سامى) أن تصفح عن تحليلاتنا ، فقد تعلمنا من طول غدر الحليف وخيانة الصديق ... قد تعلمنا أن المستغل يكفر بالله وبالشرف وبالكلمة من أجل استمرار استغلاله .

تعلمنا أننا بدون شك ، أطفال سذج فى أيدى قتلة برابرة .

تعلمنا أننا لن نتخلى عن الشك حتى تسود الديمقراطية وسيادة الشروعية وهيمنة الاشتراكية .

الاسم : سيد منصور ، ضابط بمعتقل الأوردى .

* * *

ليلة من شهر يناير ، ١٩٦٠

عنبر (١) تحت البطاطين ، على الأسفلت راقد ، راقد يتظاهر بالنوم ولكنه فى الواقع يستمع . يستمع إلى تحليل من مجلة (انتباه) .

... ولذلك فإن الخطوط العامة لخريطة المشرفين على هذا المعتقل هى تقريباً بالصورة الآتية :

المأمور حسن منير هو المشرف الرئيسى على عملية التعذيب يعاونه ضباطه .

الصول مطاوع هو المشرف العملى للتفضيلات وعين المأمور وأذنه ويده للاشراف على السجانة .

السجانة ودورهم فى التنفيذ يتبين وينبثق من خوفهم من المأمور وضباطه والصول وكذلك من عملية التعبئة التى تمت بينهم لتحريضهم ضدنا وقبل وصولنا مستغلين فى هذا التحريض جهلهم .

من أخطر الشخصيات الصول مطاوع . وفى كل معتقل ارتبط اسمه بالتعذيب كان هناك صول يعتبر الركن الأساسى للتعذيب أو دينامو التعذيب .

فى معتقلات هتلر دخل التاريخ الصول كوخ صول معتقل بوخنوالد والصول إيرماجرس صولة معتقل بلسن أو ذئبة بلسن كما سموها خلال محاكمات مجرمى الحرب فى براندنبرج .

ومع الفارق فى التاريخ والمجتمع والسلطة والظروف ، فإن قوة مطاوع وضراوته وخوف الحراس منه وصلته بحسن منير الشخصية حتى الدرجة التجسس على الضباط أنفسهم تبين أنه عامود رئيسى (للأوردى) وحليته أبو زعبل . الصول مطاوع هو ذئب معتقل الأوردى .

الاسم : مطاوع . صول بمعتقل الأوردى .

* * *

أما اختيار بقية طاقم التعـذيب ، فقـــد كان أبسط إلى حـد كبير .

فهناك قاعدة في مصلحة السجون لاختيار السجانة عندما يتقرر تأديب عنبر معين أو سجن معين . والقاعدة هي أن بعض السجانة ملفهم المصلحي مليء بتهم وجنح وجنايات الاعتداء على المسجونين . ومثل هذا الملف هو الذى يرشح السجان لعملية التعذيب .

وهـكذا رشحت الملفات السجانة الذين اختارهم همت وحسن منير لعملية أبو زعبل ، مع إضافة رتوش صغيرة تقدمت بها المباحث العامة واقترحتها .

وتلخصت هـذه الرتوش والاقتراحات كلها حول مجابهة ذلك الخطر الذى يحدث دائماً عندما يسجن شيوعى . الخطر الذى يحدث عندما يبـدأ السجان في الاستماع للشيوعى لينتهى بالتعـاطف معه ثم بمساعـدته على مجـابهة إرهاب الإدارة ومساندته في حربه المستترة ضد المباحث وعيونها .

وتجربة كل سجن دخله شيوعى تحكى عن ذلك .

مئات القصص . . . تكفينا ثلاثاً منها .

ففى سجن الواحات ضبط سجان كان يقوم بمهمة الاتصال بأهالى المسجونين وتسليمهم خطابات من أبنائهم وثبت فى التحقيق أنه كان يقوم بذلك أساساً لأنه آمن بالفكر الاشتراكى .

وفى معتقل القلعة حكم على جندى لأنه ضبط بعشرات الخطابات وثبت أنه يقوم بالمهمة لأنه كان يوماً جندياً فى الجيش تحت أمرة ضابط عامله خير معاملة ، هذا الضابط أصبح فيما بعد معتقلا وهو محمود المناسترلى .

وفى سجن مصر كان باشاويش العنبر عبد الغفار وملفه يحمل ٨٤ جنحة اعتداء على مساجين ، وشاويش العنبر مسعود الذى يحمل ملفه تقريباً نفس العدد من الجنح والمشهوران بأنهما من أقسى وأخطر السجانة ، كانا بالنسبة لنا وخلال فترة سجننا صديقين بمعنى الكلمة ، وإنسانين بكل ماتحمل الإنسانية من أعماق .

وكان الفضل فى هذا التحول الذى فوجئنا به عندما وصلنا لسجن

مصر ، الدور الإيجابي المادي الصبور الذي لعبه كل من الدكتور شريف حتاتة ومحمود توفيق السجينين الشيوعيين .

... أذكر ذات يوم وفي سجن مصر أني حكم على بأسبوع أقضيه في التأديب اضبط بعض الممنوعات معى وكانت باكو شاى وقلم رصاص .

وكان عنبر التأديب بالسجن معناه ، أسبوع على الأسفلت في غرفة مظلمة لاترى النور ، وجيوش من البق ، ومنع السجائر والقراءة والفسحة والزيارة وأى طعام سوى « الفول » .

وأذكر أن هذا الأسبوع الذي قضيته في التأديب كان من أطرف أسابيع سجن مصر . فيه قرأت كتاب جيبون : « سقوط الدولة الرومانية » . وفيه رشت الغرفة بالد . د . ت ، وأحرقت كهوف القمل والبق في الجدران بوابور لحام ، وفيه ظــــل باب الزنزانة مفتوحاً . وفيــه وصل إلى بدل « الفول » طعام خاص من مطبخ السجن والمخصص للضباط .

وكان السبب عبد الغفار ومسعود اللـذين رفضا حتى الاستماع لـكلمة شـكر .

* * *

وبما أن المباحث العامة كانت تعلم بهذا الخطر ، ... بما أنها كانت تريد اختيـار أسوأ نوع من السجانة لعملية أبو زعبـل واستمرار هـذا السوء حتى النهـاية فقـد وضعت بعض الرتوش والاقتراحات .

... كان اختيار السجانة ، من بين أسوأ السجانة شراسة وخلقاً وجهلا وانحرافاً أخلاقياً ، أغلبهم من مدمنى المخدرات وأغلبهم فى خوف من الفصل فى أى لحظة .

وعلى رأسهم اختير الصول مطاوع ، رحل يحمل ملفه عدة جرائم خطيرة ، أساسها الرشوة والشذوذ الجنسى وإدمان الأفيون .

... ثم اقتراح تقـدمت به المباحث ونفـــذه حسن منير ، فقبل وصولنا إلى « أبو زعبل » ، تم عزل الشاويشية فى « الأوردى » فى مدرسة [1] ... وكان برنامج المدرسة إقناعهم بأننا خونة وأننا يهود

ولسنا مصريين وأننا ملحدون وكفرة . . . وبالتالى دمنا حلال ! .

هكذا أضيف إلى الكذب التحريض ، واستغل الجهل لخلق القاتل .

أذكر أننا لاحظنا عند حضورنا لأبى زعبل أن الضرب تركز بصورة ملفتة للنظر على من يلبس منا نظارات طبية ، ففؤاد مرسى وإسماعيل صبرى وشهدى الشافعى ونبيل الهلالى ولويس عوض ، وكل من أصابه القدر بقصر نظر أو طول نظر فحمل على أنفه نظارة ، كانت الشوم لاتتوقف عن ملاحقته .

. . بعدها بفترة ومن زلة لسان أحد السجانة علمنا أن حسن منير درس لهم فيما درسه ، أن الزعماء يلبسون نظارات طبية لأنهم يقرأون كثيراً ! . .

* * *

... كثير من الرتوش كانت مريرة فى سخريتها ، لأنه اختفى وراءها حقد هائل .

وكان وجه هذا الحقد المصيلحى وهمت وحسن منير .

وقصة المصيلحى قد عرفتموها ..

بقيت قصة همت .. وحسن منير !

* * *

— ٥ —

شخصية اللواء إسماعيل همت ، وكيل مصلحة السجون ، كانت شخصية واضحة لاتعقـد فيها ، فهو من نوع الشخصيات الطموحة التى تريد أن تصل إلى أعلى المنـاصب وبطرق أخرى غير طرق الشرعية والترق العادى ، شخص فى النهاية غير مثقف محدود الأفق مجنون بالمظاهر .

وذلك ، وشخص هـــــذه صفاته ، لابد من طريق آخر لتحقيق طموحه .

وكان أن اكتشف همت طريقه ، أن يكون رجـل مصلحة السجون حين يطلب تأديب المعتقلين السياسيين ، أن يكون جلاد التعذيب حينما يصبح التعذيب شعاراً يطلب التطبيق .

* * *

وكان أن حفـل تاريخ همت بالعمليات « غير النظيفة » فهو الرجل الذى أحرق خيام المعتقلين فى معتقل الواحات قبل نقلهم إلى السجن الجديد بالمحاريق ودمر كتبهم وملابسهم وحاجياتهم واعتدى عليهم بالضرب .

ثم كان الرجل الذى قاد حملة تاديب لمعتقل الشيوعيين بأوردى أبو زعبل فى عام ١٩٥٤ والتى استمرت عدة أيام والتى تهشمت فيها أطراف بعض المعتقلين .

ثم كان الرجل الذى تولى و عام ١٩٥٩ مهمة تأديب الشيوعيين فـكان الذى قام بترحيلنا إلى سجن الواحات من القلعة فى تلك الرحلة

الكريهة ، واستقبلنا فى الواحات ذلك الاستقبال السينمائى .

ثم كان أيضاً الرجل الذى قام بتأديب معتقل الواحات والفيوم عدة مرات خلال أعوام ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ١٩٦٣ . وفيها أشرف فى هذه التجريدات الفاجئة التى كانت قاسية وإن لم تطل ... أشرف عدة معتقلين على الوفاة ، منهم فخرى لبيب الذى كسرت ساقة ، ومحمود المناسترلى الذى قضى عدة أيام بين الحياة والموت ، وفوزى حبشى الذى كاد يقتل ، ولويس إسحق الذى قتل فعلا .

وكانت أكبر عملياته ، هى عملية أبو زعبل ، فمنذ البداية حتى النهاية ، أشرف عليها . منذ التشريفة الأولى كان بالشرفة يقود تعذيبنا ، وفى التشريفة الأخيرة شهد مقتل شهدى .

كما كان الجبل ، يشهده كثيراً يحضر وسط ضجته وغروره ، حوله حرسه المسلح الخاص ورشاشاته ليتفرج على « الأولاد » وهم يضربون فى بطن الجبل .

وكنا نعرف وصوله ببداية اليوم عنيفاً قاسيا ، درجات التعذيب فيه أعلى من أى يوم عادى .

وكنا نتأمله ونجذبه صوله الخاص ، ولكنه وكعادة الطامحين الانتهازيين ، لم يصدق حسابه ، ولم تتحقق وعود المصيلحى له .

فكما نقل المصيلحى فى نهاية الأمر إلى مصلحة الجوازات وهرب بعد ذلك إلى جنيف ، أحيل همت إلى الاستيداع ووجد فيه الطريق مسدوداً .

واعتقد أنه يعلم الآن أن المصيلحى قد خدعه ، أو على الأقل ، أدرك أنه كان مخلب القط لرجل خدعه ولم يضر .

فلقد أغفل المصيلحى بالطبع أن يقول للمخلب ، أن أجانب معينين ، يضمنون للسيد المستقبل حين الأزمة . كان همت فى النهاية مجرد قزم لعب به السياسيون واستعملوه .

فعندما أحيل همت للاستيداع مكرها ، كان المصيلحى فى طريقه لمصلحة الجوازات ومنها للخارج .

ولقد يرى أن هذا شأن المخالب دائما ... أن تحرقها النيران .

لحمزة البسيونى الذى قاد عمليات التعذيب فى السجن الحربى ،

دخل السجن بدوره ولم يشفع لهروبه أمام العدوان الصهيونى تاريخه الملوث بالدماء .

وشمس بدران وصلاح نصر وحسن عليش وأحمد صالح وحسن طلعت وحتى آخر القائمة تاريخ مخازيهم معروف والهاوية التى ترددوا فيها وفى النهاية درس للجميع .

... حتى هلال عبد الله هلال الذى جا كنا ينسى أنه ضابط وقاض ، فيتركنا ونحن على ذمته فى أيدى المباحث يعلم مايحدث ويغمض عينيه ويتهرب من رؤية زوجاتنا وأطفالنا وأهلنا وهم يستنجدون ، يستنجدون شرفه العسكرى ، وشرفه كقاض بعد أن حمل مسئولية القضاء .

ولم تمض سنوات حتى كان بحال الاستيداع ممن أحيلوا كسبب مباشر للنكسة .

فليس غريبا أن يكون الجلادون جبناء أمام العدو المسلح ، شجعان والضحية مصرى أعزل وحيد أمام قطعان البربرية .

ليس غريبا أن يهاجم الدجوى مصر ويهرب حمزة البسيونى

وينكمش هلال وبدران وكل القائمة .

فليس الرجل من عذب أهله ومواطنيه . ليس رجلا من قتل فى أبو زعبل وضرب بالسيور الجلدية لنساء شيوعيات فى سجن القناطر .

الرجل من ذاد عن أرض الوطن ، وكسر بالعزم والتضحية هجمات العدو الشرس ، وبذل الدم فى سبيل تحرير الأرض .

... والقائمة إياها ، تضم مثل هذا الرجل !

النقطة المؤسفة الأخيرة ، أن همت لم يلق جزاء بدران وصلاح نصر وعليش ، همت يعيش فى منزله يتمتع بمعاشه ، دون حساب عن التعذيب والقتل .

... أذكر أننا ... نبيل الهلالى وأنا ، قررنا رفع دعوى فى عام ١٩٥٧ للتحقيق والتعويض عن التعذيب الوحشى الذى ناله الرفيق مختار ، زميلنا النوبى فى السجن الحربى خلال عام ١٩٥٥ . وكان أحد الأدلة الدامغة ليس فقط ظهره الذى وحتى اليوم — وكيل المجلس الشعبى بأسوان حاليا — . ظهره الذى لا يحمل لحماً يغطى

منكبه ، وإنما جلد رقيق . فقد ذهب اللحم بالسياط ونهش الكلاب المتوحشة . وإنما أيضاً لأن أوراق تحقيقه فى السجن الحربى ملوثة بالدماء . تلك الدماء التى طفرت منه خلال استجوابه ، فقد كان الاستجواب يتم مع التعذيب .

ولكن الدعوى التى رفعناها فشلت ، عندما اكتشفنا أن ملف التحقيق والحكم اختفيا من المحكمة العسكرية .

فسيادة القانون تعنى الحساب وفى حدود القانون ، وتعنى توفير ضمانات هذا الحساب ، خصوصاً فى جرائم هامة .

ولا أظن أن أحداً يختلف أن إزهاق روح حرم الله إزهاقها إلا بالحق ، جريمة هامة !

ولكن المشكلة أن سيادة القانون لها أكثر من تفسير . . والتفسير السائد أن تعذيب الشيوعيين حلال .

***

أما حسن منير ، فهو الشخصية التي تستدعي الوقوف عندها والوقوف طويلا .

فبدونها لا يستطيع أحد أن يفهم ما حدث في « الأوردى » .

... لقد كان من بين ماقرأته من كتب حول الجلاد السياسى . كتب لورد رسل اف ليفربول عن معتقلات هتلر ، وكولين ولسن في شخصية المجرم السياسى ... وعديد ممن كتب عن المعتقلات كدريك ماريا ريمارك ، ودراسات في معتقلات اليابان خلال الحرب العالمية الثانية ومجرمي الحرب فيها ، ومعتقلات جنوب أفريقيا ومعتقلات اليونان بعد الانقلاب العسكرى .

... ولقد وقفت طويلا أمام شخصيات جلادين ككرخ وإيرماجرس ومولر في ألمانيا ، وساليز وميكوزادا وتومنجو وتوجو في اليابان .

وانعصر قلبي وأنا أقرأ ملحمة ألبي ساش في غياهب سجون أفريقيا .

وقرأت مأساتنا تحدث بالحرف الواحد فى معتقلات اليونان وسجون « بابادوبولوس » .

ومن كل ذلك خرجت بحقيقتين ...

أن حسن منير وأساليبه فى الأوردى ... ليس بالجديد .

وأن الشخصية والمنطق والأسلوب وطرق التعذيب ، واحدة لاتختلف إلا فى الدرجة والهدف .

... فلو لم يكن حكم عبدالناصر وطنياً ، ولو لم نفقد إيماننا بضرورة الوحدة الوطنية حتى فى أشد الساعات دموية . ولو لم تكن مصر دولة تسير نحو التحرر الوطنى والاجتماعى وليست دولة فاشية . ولو لم تكن الأزمة موقوتة وحرية الجلاد فى الحركة محدودة . ولو لم تكن الاشتراكية العالمية قوية ظافرة لايمكن تجادل قوتها وحسابها ، لكان « الأوردى » قد شهد مجزرة لاتقل بشاعة عن بلسن ، وأورفنتش ، وبوخنوالد . ولدخل حسن منير التاريخ من أقذر باب كما يقولون .

فحسن منير رجل خطر وشخصية جديرة بالدراسة ، لأنها

تحمل كل جنون وذكاء القاتل المريض نفسيا .

لهـــــذا فهى الشخصية التى تستدعى الوقوف عنـدها ، والوقوف طويلا .

ولنبدأ بحادثة معينة أعتقد أنها قد تلقى ببعض الضوء على نفسية رجل ، ولسوء الحظ مازال مطلق السراح يتمتع بحريته دون عقاب ... بل ويتمتع بوظيفته حتى الآن . وظيفة تفـترض أنه رجل يحمى القانون والأمن ... بل يدرس هـذا القانون والأمن فى معهد أمناء الشرطة !! ..

* * *

— ٦ —

كان أول يناير عام ١٩٦٠ هو اليوم الذى بدأت أكتشف فيه ذلك الجانب المريض فى شخصية المـأمور حسن منير .

قبله كان بالنسبة لى مجرد رمز للارهاب . صوتا يلقى أمراً بالضرب أو يداً تشير لتنهال العصى أو وجها يختفى خلف نظارة سوداء كبيرة

يضعها دائما على عينيه ، وجهاً يرقب عمليات إيذائنا وتعذيبنا دون أن تختلج له عضلة .

وفى ذلك اليوم ، فى أول يناير وفى الصباح الذى بدأ وظل ممطراً بارداً غائماً ، كنت أضع يدى على ذلك الوحش المجنون الذى يكمن فى أعماقه ، والذى من أجله فهمت سبب اختيار المصيلحى له كمأمور « للأوردى » .

* * *

استقبلنا السنة الجديدة فى الأوردى . وأعضاؤنا ترتجف من البرد اللاذع الذى تسرب من خلف قضبان نوافذ العنبر لا يحتجزه زجاج أو شباك ، الذى قبع فى الأرض الصلبة يتسلل إلى أجسادنا من أقدامنا العارية إذا تحركنا . ومن ظهورنا وجنوبنا إذا ماجلسنا أو استلقينا ، فعلى هذه الأرض العارية كنا ننام ، غطاؤنا برش وبطانية واحدة .

... برد لاذع قاس ، تزيد من قسوته تلك البذلة من الخيش الخشن التى لا تستطيع أن تحمى جسداً أو تدفئ أعضاء ، خصوصاً

وهى تستقر على الأجساد مباشرة دون ملابس داخلية .

... كان قد مضى على وجودنا فى « الأوردى » قرابة شهرين ومررنا بأكثر من محنة قمتها نزولنا للجبل ، لقطع الأحجار كما قال حسن منير ، وحقيقتها مسرحية دامية أوشكنا بعدها أن نصدق فكرة طالما قاومناها ورفضناها ، خوفاً من النتائج الفكرية التى يمكن أن تترتب على قبولها ... وهى أن إبادتنا قد بدأت بالفعل ! .

ولذا لم يكن غريباً ، أنه رغم الأمطار والغيوم والبرد فى ذلك اليوم ، فقد سرت فى نفوسنا بهجة وفى قلوبنا راحة ، فقد كانت الأمطار والغيوم تعنى عدم نزولنا إلى الجبل .

... كنا قد تعلمنا بعض القواعد الأساسية التى تحكم الليمانات كقانون قدسى لا يمكن المساس به ، ومن هذه القواعد أن الأمطار تمنع نزول النزلاء إلى الجبل على أساس أنها قد تمكن مسجوناً من الفرار مستغلا ضعف الرؤية .

... وهكذا جلسنا على أرض العنبر وظهورنا للحائط وأمامنا

طويت البطانية وافف البرش ، بطانية رقيقة وبرش من ألياف ليفية خشنة هما الوسادة والغطاء .

... جلسنا على الأرض مباشرة وأمامنا طويت البطانية واف البرش وعليهما استقرت « القروانة » أو إناء الطعام الألومنيوم كما كانت تقضي الأوامر الصارمة ... البطانية والبرش لا ليستعملا إلا فى حالة واحدة وهى بعد إقفال العنبر فى المساء وعند النوم ، أما بعد ذلك فا لجلوس والنوم على الأرض العارية ! ..

... ولكن تلك البهجة ، والراحة النفسية ، لم يستمرا طويلا ، ففجأة فتح باب العنبر ودخل حسن منير ورجاله ، انقف للتفتيش نتلقى ضربات الشوم فترة ، ثم نستقبل أمراً بأن يخرج خمسة عشر معتقلا منا — من نمرة ١ إلى ١٥ إلى فناء السجن .

ولما كنت أحمل رقم (٦) فقد خرجت فيمن خرجوا ، نقف جامدين « انتباه » تحت الأمطار ننتظر الفصل الثانى الذى لا بد أن يكتمل فى مسرحيات المأمور .

فهمنا أن حسن منير قد قرر ألا نقضى اليوم كما تصورناه ..

بل قرر أن يعطينا جرعة جديدة من العذاب والإنهاك ، وبالفعل بدأ في إلقاء أوامره .

... خلال كلماته الناعمة الملساء ، كنت أنظر إلى ذلك الوجه الأبيض السمين الذى يختفى خلف النظارة السوداء ، وتتوقف عيناى أمام « الـكاب » الذى استقر على رأسه .

كان على الفم الذى لا يبتسم عادة ، ذلك التقلص الذى دائماً يرتسم عليه ، كأنما صاحبه ينظر إلى الدنيا فى استعلاء ، ولـكن « الـكاب » استرعى اهتمامى وأثار فى نفسى إحساساً غامضاً بأنى قد شاهدته من قبل وفى ظرف مختلف .

... وتوالت الأوامر غريبة مريرة .

بعضنا عليه أن يكنس مياه الأمطار ويسوى الأرض بفروع من جريد النخيـل ، وبعضنا عليه أن يخلع ملابسه لينزل داخـل « بكابورتات » الأوردى وينظفها ... وبعضنا عليـه تنقية رمال أرض المعتقل وفنائه من الحصى والحجارة !

— يا أولاد ... كل واحدة من هـــذه المهام « صنعة »

سوف تنفعكم عندما تخرجون من السجن ! . .

هكذا علق حسن منير على تلك التكليفات بصوته الناعم ، ليختار لى (صنعة) فريدة من نوعها .

إشارة من يده تبعته للخارج ، خارج الأوردى ومعى الرفيق أمين شرف ، لنجد أنفسنا فى ذلك الطريق الضيق المترب الذى عليه تدور أحداث التشريفة والذى يمتد أمام مكتب المأمور .

. . . ثم تقدم سجان يعطينا ، أمين شرف وأنا ، كوزين صغيرين من النحاس أو الصفيح ، لنسمع الأمر . . .

— ياأولاد ... عليكما بنزح المياه المتجمعة على الأرض وإفراغها فى ذلك المجرى !

ووقفنا مع الأمر ذاهلين لا نكاد نصدق .

الطريق الملىء بالحفر قد امتلأ بمياه الأمطار التى استمرت تهطل بغزارة ، وكان الأمر يعنى ، أن نملأ الكوزين من هذه المياه لنفرغهما فى مجرى مائى صغير مواز للطريق وليستعمل فى رى الحديقة المحيطة بمكتب المأمور والضابط .

وبعـــد شومتين نزلتا على ظهرينا ، أفقنا لنبـدأ فى تنفيـذ الصنعة الجديدة .

وهـكذا مر اليوم كاملا ، من حوالى الثامنة صباحاً حتى الخامسة مساء ظللنا نمـلأ الـكوز ونفرغه ، ننحنى وننهض ونفرغ الـكوز ثم نبدأ من جديد .

... مرت ساعات النهار كلها ونحن ننفذ عملا مجنوناً وأمراً مستحيلا وعلينا الأمطار تسقط ، والجوع والإعياء يجتاحنا .

فى تلك الساعات لم أتمن شيئاً كما تمنيت أن أضع يدى حول عنق حسن منير ولا أرفعهما حتى يسكن للأبد .

وطيـلة الوقت ، كنا نراه يتحرك فى مكتبه ليستمع للراديو وليشرب شاياً من ترمس ويأكل فى تمهل ... وكنا نعلم أنه يفعل كل هـذه الأشياء فى تمهل لأنه يعلم أننا نرقبه ولأنها كانت جزءاً من عملية التعذيب .

وبين الحين والآخر كان يخرج إلى الشرفة ليرقبنا لحظة وايقول بصوته الناعم :

ـــ برافو .. برافو يا أولاد .

يوم لن أنساه ، ففيه إلى جانب جنونه وبرده وإنها كه ، كنت أضع يدى على ذلك الوحش السادى المريض الذى يكمن فى أعماق حسن منير .

.. فى ذلك اليوم أيضاً وفى المساء ، دخل الحراس عنبرنا ثلاث مرات ليضربوا رفاقى واحداً واحداً وطويلا وفيــه أيضاً نمنا جياعاً ليس فى بطوننا سوى الأرغفة الثلاثة وحبات الفول ، « فشوربة » المساء منعها عنا المــأمور .

كانت حجته أنها لم تصل من الليمان نتيجة للأمطار .

. . .

بعد حادث « الـكوز » بأيام كنت أتذكر فجأة أين رأيت ذلك « الـكاب » الغريب الذى كان يضعــه فوق رأســه وأين شاهدته من قبل .

تذكرت الأفلام والصور ، ومعها « الـكاب » النازى الحاد

الذى كان يضعه رجال العاصفة والجستابو على رءوسهم نفس الكاب المغرور المتعالى .

وبعد شهور كنا نكتشف سر ذلك الكاب وتلك النظارة السوداء وذلك الوجه الجامد الذى لا تتغير ملامحه .

كانت المظاهر كلها لإخفاء حقيقة لا يمكن التخلص منها .

ولا أعتقد أنى أتجنى على الرجل ، وادعى أشياء لأنه كان الجلاد وكان المعذب .

فهناك واقعة لا تقبل الجدل .

عندما سقط شهدى قتيلا وانفجر الموقف وخرجت الأمور عن الكتمان ، عندما حضرت النيابة فجأة لأبى زعبل وبدأ التحقيق على دون انتظار .

دخل حسن منير حمام فيلته عندما استدعوه للتحقيق ليضع ساعده على طرف الحوض ثم يهوى بآلة ثقيلة فيحطم كوعه .

وعندما ذهب إلى التحقيق بعد ذلك بساعة ، كان يحضر مضمد

الساعد يدعى أن شهدي حاول الاعتداء عليه ودافع هو عن نفسه وكان أن سقط شهدى قتيلا خلال المعركة التى تمرد فيها .

والساعد المحطم هو الدليل والشاهد على صحة مايقول .

شخصية ناعمة — إلى الحد الذى فيه — وهى فى قمة ذعرها وجبنها ووجلها تلتجئ إلى هذا الأسلوب الملتوى الغريب ، شخصية تقتل وتتهم القتيل بأنه هو القاتل .

شخصية تلتجئ إلى أسلوب يشبه أسلوب غانية سيئة السيرة والسمعة تنجنى على رجل شريف وتبرز كدليل كدمات ألحقتها بجسدها .

أسلوب لم يكن فى مستوى أسلوب بعض السجانة الذين شهدوا بأنهم كانوا ينفذون أوامر ، لا أكثر ولا أقل .

فربما كان هؤلاء السجانة أغبياء وكانوا جهلة وشريرين وكانوا أيضاً أدوات استعملت للقتل ، ولكنهم كانوا رجالا عاديين بالمعنى الدارج والبسيط للرجولة .

... كانوا ذلك ، أما حسن منير فقد كان شيئاً آخر .

شيء آخر مختلف تماما !

— ٧ —

كان الفرق بين التعذيب الذى حل بالإخوان المسلمين فى السجن الحربى خـــلال أعوام ٥٥ ، ٥٦ ، ١٩٥٧ ، وبين التعـذيب الذى عشناه فى أوردى أبو زعبل ، هو فى الهدف الذى من أجله استخدم التعذيب .

فبالنسبة للاخوان المسلمين ، كان الهدف هو الوصول وبأسرع وقت ممـكن وأيا كانت الطرق والأساليب إلى اعترافات ترشد عن التنظيم السرى الإرهابى والمسلح الذى يهدد وينذر بعمليات اغتيال واسعة ، ولذلك كان التعذيب شديداً ومركزا ، ولـكن فى الوقت نفسه قصيرا . . جريمة شديدة ولـكن محدودة الوقت ، هـذا الوقت بدوره يتحدد انتهاؤه بالاعتراف المطلوب . ولذلك لم يستمر تعذيب الإخوان سوى أيام لم تتجاوز الشهر ، وتوقف عندما تـكلمت الأفواه وأرشدت الأيدى ، أما بعد ذلك فقـد عاش الإخوان سجناً عادياً

إلى حد كبير ثم نقلوا إلى الواحات ليعيشوا فترة أخرى فيها العديد من الامتيازات .

أما بالنسبة لنا فقد كان الأمر مختلفاً إلى حد كبير .

فالمباحث العامة تعلم ومن خلال تجربتها أن الاعتراف لا يعنى كثيرا فى قضايا الشيوعية ، ليس فقط لأن الشيوعيين لا يؤمنون بالإرهاب والاغتيالات ولا يحوذون أسلحة ومتفجرات ، وإنما أيضا أن معظم الشيوعيين معروفون من زمن طويل بآرائهم وكتاباتهم ونشاطهم السياسى والصحفى والنقابى .

كما أن العديد من الشيوعيين يتقدم من تلقاء ذاته فى المحاكم للاعتراف بأنه شيوعى ويعلن فخره بالانتماء للحزب الشيوعى كأسلوب لتقديم دفاع سياسى وثورى عن الشيوعية والحزب أمام المحكمة .

الشىء الوحيد الذى لا يخوض فيه الشيوعيون ، هو الإرشاد عن شيوعيين آخرين وفى هذا لا ينفع إرهاب أو تعذيب أو أحكام ، فسجل الشيوعيين أمام المحاكم لا يحوى من اعترف على زملائه أو أرشد عنهم إلا من القليل النادر ...

حالات لاتتجاوز الخمس خلال سنوات تتجاوز العشرين .

والسجن بالنسبة للشيوعى ليس مفاجأة ، إنه مرحلة أخرى من النضال ، السجن فى اعتقاده ككل شىء آخر من المجتمع محكوم بالظروف السياسية لا أكثر ولا أقل .

ولا أدل على صحة هذه النظرية ، أنه من صدر الحكم ببراءتهم فى قضيتنا وفى القضايا التى تبعت قضيتنا ، خرجوا من السجون والمعتقلات فى نفس الوقت الذى خرج فيه من حكم عليه بالأشغال الشاقة ولعشر سنوات .

عندما تغيرت الظروف ، خرج الجميع ، والكل عاد للحرية من جديد بعفو شامل ، وصفوف الحركة الوطنية تلتئم وتلتحم .

ولما كان الاعتراف ليس هو الهدف الذى تنشده المباحث العامة ، خصوصا وأن محاكمتنا أمام المجلس العسكرى كانت قد تمت بالفعل . فقد كان التعذيب فى أبو زعبل محكوما بهدفين :

الأول : وهو الانتقام من مواقف الشيوعيين خلال المحاكمة ، وهذا هدف غير رئيسى .

والثانى : تصفية الشيوعيين سياسيا ، أى وبعبارة أبسط تحطيمهم تماما ، وهذا هدف رئيسى .

وكان أن ترتب على هذا المنطق وتلك الأهداف عدة أشياء - عــــدة أشياء كانت تمثـل الاتجـاهات والأساليب التى شهدها معتقل الأوردى .

. . .

فقد خطط التعذيب أولا ، على ألا تزيد الجرعة على حد معين - وهذا الحد المعين هو الشعرة الضئيلة التى تفصل الحياة عن الموت كما خطط التعـذيب على أن يستمر أطول فترة ممـكنه مع إبقاء المعتقل فى أدنى حالة من الجوع والإنهاك . وكان تقـدير المباحث العامة أن « الأوردى » سيستمر كمعتقل للتعذيب عدة سنوات .

بعد ذلك خطط التعـذيب بوضوح . تعذيب بدنى يتمثل فى الإيذاء البدنى المستمر والمنظم ، والإنهاك المتمثل فى العمل الشاق بالجبـل ، وتعذيب معنوى يتلخص فى عزل المعتقل تماما عن الحياة الخارجية وفى الوقت نفسه محاولة تدمير وتخريب نفسـية المعتقلين -

فمن ناحية منعت الزيارات تماما والجرائد والكتب وأى وسيلة يمكن أن يتلمس من خلالها المعتقل مايدور فى الدنيا من أحداث ... حتى أيام الأسبوع وتاريخ الأيام والشهور اختفت تماما وتبخرت .. لادنيا ولا أحداث ولا تاريخ !

فإذا كانت السياسة هى حياة المناضل السياسى . والأحداث هى غذاءه الروحى والفكرى .

فالسلطة وجـــدت فى العزل عن العالم الخارجى الأسلوب للتدمير المعنوى .

عزل شامل وأيا كانت الأسباب ، فحتى العلاج الطبى منع تماما أيا كانت متطلباته ، ولذلك لم يكن غريباً أن يظل الدكتور فوزى منصور الذى تحطم ساعده بضربة شومة فى إحدى التشريفات ، يعمل بالجبل بنفس الذراع المحطمة حتى نهاية الأوردى وأيام المعتقل .

ولم يكن عجيباً أن يستشهد رشدى خليل عندما أصيب بالتفوئيد ، لأنه ببساطة ترك بدون علاج حتى مات .

. . .

... بعد ذلك اتجه التعذيب المعنوى اتجاهين ، وتولى المهمة حسن منير وضباطه ، ينفذون ما اتفق عليه مع المباحث العامة ، ويخترعون فى الطريق ماشاءت لهم عقولهم المريضة .

الاتجاه الأول : أن يتركز التعذيب على عنبر « ١ » الذى عرف عنه أنه يضم معظم القادة وغالبية أعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعى المصرى ، وعلى أساس أن القائد إذا ماتحطم فما أسهل ماأن يتحطم الآخرون .

فالمباحث العامة تذكر أن حسن الهضيبى المرشد العام للاخوان المسلمين عندما انهار بالسجن الحربى ليمسك بعصا صغيرة ويتحول إلى « مايسترو » يغنى « جمال يامثال الوطنية » .. غنى الإخوان المسلمون كلهم وانتهت العملية والاتجاه الثانى أن يكون التعذيب المعنوى فيه السخرية المرة وإهدار الآدمية وتحقير الكرامة ، فقتل النفس وسيلة لقتل الجسد والإنسان ، وإفناء الفكر إفناء حاسم للبشر .

وفى هذين الاتجاهين وما كرس لتحقيقهما تبرز عبقرية المصيلحى وحسن منير وهمت ، إذا جاز أن نسمى الجريمة عبقرية ، وفيهما

أيضاً القصة الحقيقية للأبعاد البشعة التي لا تكاد تصدق لقصة التعذيب في أبو زعبل .

ولكن فيهما أيضاً وفي النهاية حكاية الصمود بكل أمجادها وتضحياتها وروائعها .

. . .

بعد كل ماتقدم من صفحات وتقديم فقد حانت لحظة قصة ماحدث بالضبط ودون رتوش .

وقد يكون من الصعب تصور الرواية ، والحيوانية والبربرية والدموية وصلت قمما لا تكاد تصدق .

... فما أصعب على المصري أن يصدق ماسوف يسمعه ، وأنه حدث على أرض وطنه .

ولكن المأساة تتمثل في أنه قد حدث ، وأن سلطة مالم تتدخل مانعة ، وأنه لم يتوقف إلا بعد أن سالت دماء كثيرة واستشهدت أرواح ، وأنها لم تتوقف إلا لتغيير الظروف السياسية .

ولذا ... فإن كنا نؤمن بالديمقراطية ، ونتمسك بسيادة القانون فهناك ضرورة لمعرفة ماتم حتى يقف كل مصرى فى وجه أى إنسان كائناً من كان قد يهدد هذه الديمقراطية وهذا القانون ويفتح الباب لإعادة الكرة .

حتى يقول كل مصرى « لا » فى وجه أى إنسان يتجرأ لرفع شعار الإرهاب تحت أى اسم مزيف أو ديماجوجية كاذبة .

فمن الضرورى تعرية ماحدث وحكايته كما حدث .. وبالضبط .. وهذا ماحدث ...!

. . .

— ٨ —

لعدة أيام بلغت الأسبوعين بعد وصولنا إلى « أبو زعبل » ، كان التعذيب كله ينحصر فى عمليات ضرب جماعية ويومية ، كل صباح بفتح العنبر ، ليدخل أحد الضباط وعدد من السجانة ، ومع كلمة « انتباه » نستدير لنستقبل الحائط بوجوهنا ولتستقبل ظهورنا هراوات السجانة ، وكل مساء وقبل إقفال العنبر حتى الصباح التالى ،

يحدث نفس الشيء ثم والأيام تمر ، بدأت جرعة التعذيب تزداد وفي الوقت نفسه تتنوع .

فمع كلمة « انتباه » صدرت الأوامر بعد أن نستدير صوب الحائط ، أن ننحني بصدورنا ورءوسنا حتى نتيح للحراس فرصة التحكم في توجية الضربات .

ثم اكتملت الصورة بأمر جديد ، وهو أن علينا بعد أن ننحني أن ندور ونلف في أماكننا ... أي كالساعة نلف وبسرعة ، ظهورنا منحنية ، وأقدامنا هي التي تتحرك تدفع أجسادنا اللف في هذه الحركة المجنونة الغريبة ، وخلال ذلك كله يمر السجانة جيئة وذهاباً ينزلون بالشوم والعصى على الظهور والرءوس التي تدور .

... وكان الغرض إلى جانب المهانة والتحقير وإجبارنا على الإتيان بحركة البهلوانات ، الفرصة للحارس أن يضرب كما يحلو له ، والفرصة لأن يتضاعف تأثير الضربات بالإنهاك ... والفرصة لأن يسقط أحدنا دائخاً أو مصاباً وعندئذ يفتح الباب أو الفرصة لضربنا من جديد أو لضرب فردى عنيف لمن تحدى الأوامر فسقط منهكا أو مصاباً ! ..

كانت هـــــذه الحركة من اختراع حسن منير ، وسماها « اف للتفتيش » .

ثم وبعد أن أحكمت اف للتفتيش هذه وأصبحت روتيناً يومياً يعاد عـدة مرات فى كل عنبر ويومياً ، كان اختراع آخر تشهده جدران « الأوردى » وفى صورة الطابور الرياضى .

فقبل الذهاب للجبل ، كان العنبر يخرج بأكمله بحجة الرياضة ، وفى الواقع لعملية إيذاء بدنى فى أقسى صورة .

أحياناً كان الأمر أن نأتى بحركة الضغط الرياضية ، أن ننطرح أرضاً لنرفع أجسادنا ونخفضها بسواعدنا وكان التعذيب يكمن فى الإتيان بهذه الحركة حتى التعجيز .

عشرات وعشرات المرات حتى تعجز السواعد وتخدر الأجساد ، ليمدو الحراس على ظهورنا وليضرب من عجز بحجة عـــدم تنفيذ الأوامر .

... ثم بعد حركة الضغط هذه ، حركات أخرى عديدة وبنفس الأسلوب ، أن ننطرح على ظهورنا ونرفع سيقاننا عشرات المرات ...

أن نعدو فى حلقة ضيقة حتى نفقد الأنفاس ... أن نهبط وننهض حتى نقع خائرين .

ببساطة تحويل أى حركة رياضية إلى تعذيب وإنهاك متصل .

... ثم وبعد الطابور الرياضى هذا ، تقدم حسن منير باختراع جديد سماه « الزحف المقدس » ، أن نهبط بأجسادنا بشرط أن نلمس الأرض مرتكزين على أقدامنا فقط ، ثم نرفع سواعدنا لأعلى ونبدأ التحرك من هذا الوضع الغريب بأقدامنا ، خطوة بعد الأخرى .

... لمئات الأمتار نسير ، ايدينا مرفوعة ، شبه جالسين ، وأقدامنا تئن من الألم والمجهود .

... أما لماذا « الزحف المقدس » ..؟ فالاسم قد صرح حسن منير منبثق من المسيرة الصينية المثيرة خلال الحرب الأهلية ، إشارة تهكمية وسخرية سوداء .

ومع هذه الاختراعات وتطورها ، كان العقل المريض السادى يلعب لعبته الخبيثة .

فالتعذيب يعاد مرة بعد الأخرى إذا ماعجز رفيق أو انهار . حتى تثار الفرقة وتتحول إلى قطيع يحمل الضعيف فيه مسئولية زيادة جرعات العذاب .

والتعذيب والإيذاء البدنى يتركز أساساً على الضعيف منا جسدياً أو معنوياً حتى يثير بانهياره وصياحه الرعب والانهزامية والإحساس بأن الإيذاء لا يمكن تحمله .

... فمن كان منا يتأوه أو يصيح ، كان هو الذى عليه عادة يتركز الضرب والتعذيب .

والتعذيب إذا كان فيه إهانة أو تحقير ، فهو يتجه صوب من يظن حسن منير أنهم زعماء أو قادة ، كما أن التعذيب وأسلوبه وشكله ، يتغير ويتلون ويختار ضحيته التى يمكن أن ينال منها .

فدكاترة الجامعة والمثقفون هم المرشحون دائماً لتنظيف البلاكابورتات ، والسمين تختار له حركات رياضية لا يمكن أن يأتى بها إلا رشيق القوام ، والمتقدم فى السن ، فالإنهاك والجرى هما المطلوبان له ، ولذا لم يكن غريباً أن فرض على يوسف المدرك الزعيم

النقابى والذى تعدى الستين من عمره الجرى عشرات الكيلومترات يومياً ... أذكر أنه حتى تناول وجبات الطعام لم تخل من اختراعات حسن منير ، كانت قراوانات الأكل المملوءة بالفول توضع على الأرض ثم نجبر على الجرى والضربات تنهال علينا ليخطف كل واحد منا قروانته ثم يجرى وهو يضرب حتى يدخل العنبر ، وكان معنى انسكاب الطعام أو سقوط القروانة ، ثلاثين شومة على بطن القدم كعقاب ، ولكن أذكر أن ذلك ما كان يحدث إلا فى القليل النادر ، فحبات الفول القليلة الملوثة بالطين والذباب والسوس كانت بالنسبة لنا قوت يوم بأكمله ، وما كنا على استعداد أن نجوع فوق ما نجوع لأى سبب كان ، كنا نفضل أن نتأنى رغم الضربات القاسية حتى نحافظ على لقيمات هى بالنسبة لنا جسر للحياة .

. . .

لمدة أيام بلغت الأسبوعين ، استمر شكل التعذيب فى هذه الحدود ، حتى ظن البعض أن هذا التعذيب قد وصل إلى قمته وأن الصورة قد اكتملت تفصيلا .

فماذا يمكن تصوره بعد لف للتفتيش وطوابير الرياضة والزحف المقدس والطعام القليل الذى تعافه النفس لقذارته والعرى والحفاء ، ماذا يمكن تصوره بعد النوم على الأسفلت ومنع الزيارات والعلاج الطبى وإغراقنا فى قذارة لاحد لها بمنع الحمام والصابون وأى سائل لتنظيف الجسد .

ماذا يمكن تصوره بعد الضرب على القفا كأسلوب للتحقير وتلك العبارات النابية الداعرة التى هى الأسلوب الوحيد لمخاطبتنا ، وإلغاء أسمائنا ا كتفاء بالأرقام كما لو كنا عبيداً معاملة ووجوداً .

... ولكن حسن منير فى الواقع كان يحضر لتصور جديد ، ومفاجأة أخرى .

كان جراب القاتل ، لايزال يحمل المفاجأة الأساسية التى حضرت لنا ، وقمة التعذيب التى شهدناها بعد ذلك وعشناها .

كان الأوردى قـــد امتـلأ عن آخره بمئات من المعتقلين حضروا من كافة المعتقـلات وطبقـاً لقوائم أعـدها المصياحى واختارها بنفسه .

وعندما امتلأ « الأوردى » عن آخره ، كان توقيت الضربة الجديدة قد حان .

ضربة فيها تكمن قمة العذاب ، وأيضاً السبب الذى اختير من أجلها الأوردى . . ليكون مهد هذا العذاب .

... مع بداية شهر ديسمبر ، كنا نعيش التعذيب الأساسى والحقيقى .

وهذه المرة أوكل التعذيب ومهمته لضباط حسن منير .

وبالفعل تولوه من ديسمبر حتى يوليو ١٩٦٠

وتولوه ببراعة ، فقد كان كل واحد فيهم قد اختير بعناية لذلك النوع من التعذيب .

— ٩ —

الاسم : عبد اللطيف رشدى .

رجل طويل القامة ، ضخم الجثة ، ووجه هادئ بارد لا يبتسم ،
لا أحد يعرف عنه شيئاً سوى أنه ضابط بمصلحة السجون ، ومتخصص
فى العمل بالليمانات

ولذا فهو فارس ماهر ، يستطيع أن يظل على جواده عـــدة
ساعات يتنقل فى أرجاء الجبل ، لا يأبه بالشمس المحرقة ولا يأبه أيضاً
بنظرات العداء التى يوجهها إليه السجناء . بل هو دائماً بين صفوفهم
التى تهوى على الأحجار بالمعاول والقضبان والقواديم والعتلات ،
والتى يمكن أن تكون سلاحاً قاتلا .

إنه نوع من الرجال الذى ينفـذ مايطلب منه بصرامة وقسوة
وأيضاً دون انفعال . والأسطورة تحكى أنه نقل إلى ليمان أبو زعبل
بعد محاولة اعتداء حاولها نزلاء طرة على حياته ونتيجة لقسوته .

هو نوع من الضباط فى مصلحة السجون ، رصيده القسوة

والاستعداد لتنفيذ أى أمر ، حتى ولو كان القتل . ومثل هذا النوع ينفع فى نوع معين من أنوع الازمات فى السجون والليانات . ولذا فهو دائما موجود بمصلحة السجون هـو مثلا رجـل الـكبسة . . والكبسة « هى التعبير عن وضع طـارىء فى سجن أو ليان نتيجة لمحاولة هروب أو تمرد . فعندما يحدث أمر خطير يهدد النظام ، تبدأ الـكبسة » .

عندئذ وفى السجون تقتل الزنازين على النزلاء ، ليدخل الحرس الخارجى المسلح تحت قيادة رجال أمثال عبداللطيف رشدى ، وبحجة التفتيش للزنازين يؤدب المساجين ضربا ، وتنهب حاجياتهم ، ويختار زعماءهم لجلد إنفرادى .

وفى الليانات يحدث الشىء نفسه ، إلا إذا كانت الكبسة أثناء العمل فى الجبل وعندئذ يتربع النزلاء على الأرض ومن تحرك ، حق للضابط إطلاق الرصاص وفى المليان .

مثل عبداللطيف رشدى ، مطلوب للتأديب . فهو الذى يشرف على التأديب الجماعى ، والفردى . على « العروسة » وهى حامل خشبى يشبه الصليب ، يربط المسجون عاريا ليضرب بالكرابيج .

. . . هـذا ما عرفناه عن عبد اللطيف رشدى ، لنـكتشف والأيام تمر شيئا آخر عنه . إكتشفنا أنه الرجـــل الذى يختاره دائما حسن منير ليوم معين ولحادث خاص . ليضمن أكبر حد من التعذيب وأعلى درجة فيه .

فقد كان مما لاحظناه أن الحراس يخشونه ويرهبونه . وأن مجرد وجوده حتى ودون أمر مباشر منه فالسواعد تنزل بالشوم علينا بكل قوة وعنف .

كان يكفى ، ودن أن ننظر ، ومن شدة الضربات ، أن ندرك ونحن نلف للتفتيش وعيوننا مصوبة للأرض أن عبداللطيف رشدى موجود وأن اليوم يوم نوبتجيته .

. . . ذات ليلة فتح عنبرنا فى منتصف الليل فجأة ، ليدخل عبداللطيف رشدى والسجانة وليصرخ فينا ونحن نيام — إثبت مكانـك .

. . . بعدها بدأ يتفحص نمرنا ويتأكد من أن كل واحد منا ينام طبقا لتسلسل نمرته . وبالطبع كان هذا أحد الأشياء التى نرفض

الانصياع لها . فالمساء كان الوقت الوحيد الذى فيه وتحت ستار الظلام يتم تهامسنا ومناقشاتنـا المعنوية والسياسية . وكان هـذا يعنى تنقلنا .

. . . فى تلك الليلة لم يشهد عنبر « أ » ضربا وحشيا كما شهده ثم وقـد انتهت الجزرة بدأ عقاب جديد ومـن نوع آخر . ففى زنازين التأديب الضيقة المختنقة ، حشر الجميع وقوفا حتى مساء اليوم التالى . كان البرد قارسا ولذ أمر عبد اللطيف رشدى باغراق أرض الزنازين بالمياه ! ففى عنبر التأديب زج عبد اللطيف رشدى فى تلك الليلة بحلمى ياسين وعبالعظيم أنيس وسعد رحمى وعبدالمنعم شتلا ومحمود أمين العالم .

ثم كان عبد اللطيف رشدى الرجل الذى شج رأس أسماعيل صبرى والرجل الذى قتل بيده شهدى عطيـة الشافعى .

* * *

. . . أحيـانا ، تشاء الصدف ، أن تلقى بضوء يأتى من حيث لاتدرى على حدث معين أو شخص معين .

وكانت أن شاءت الصدفة أن تكمل صورة عبد اللطيف رشدى فى مخيلتى .

فبعد مقتل شهدى بفترة ، وبعد أن توقف التعذيب وانتهى كل شيء ، اصيب بالتهاب كبدى حاد « صفراء » لأنقل على وجه السرعة وحالتى خطيرة الى مستشفى سجن مصر للعلاج .

وهناك تعرفت على سجين محكوم عليه بالاشغال الشاقة بتهمة الرشوة .

كان اسمه عمر قبودان ، وكانت وظيفته قبل الحكم عليه ، ضابطا لمصلحة السجون .

وحكى لى عمر قبودان تفاصيل قضيته . فوالده كان يوما ما مديرا لمصلحة السجون . . . وكان هذا سببا لسرعة ترقيته فى المصلحة وأيضا لحقد بعض زملائه عليه ، ومن بين الحاقدين كان عبداللطيف رشدى زميله فى ليمان طرة حينذاك .

وأتى اليوم الذى فوجى فيه بمباحث السجون وبناء على شكوى من مسجون تلقى القبض عليه لتجد فى سترته المعلقة على الحائط مبلغ خمسة جنيهات وعليها علامة ، كانت هى مبلغ الرشوة .

وحكى لى عمر قبودان ، أن عبد اللطيف رشدى هو الذى دبر الأمر من البداية حتى النهاية ، وأنه هو الذى وضع الجنيهات الخمسة فى السترة المعلقة .

. . . على أى حال . . . وأيا كان نصيب القصة من الصحة ، فتلك كانت حكاية عمر قبودان وهو يقضى سنوات سجنه بعد أن دمر مستقبله .

واعتقادى أن القصة صحيحة ، ولهذا حكيتها ، واتخذها مرشدا آخر لشخصية عبد اللطيف رشدى السوداء فما أظن رجلا يقتل لإرضاء رئيسه ولاشباع بربرية فى نفسه ، يأنف أن يدمر حياة زميل له ويغدر به فبعد القتل ، كل الجرائم سواء ، وكلها سهلة الارتكاب .

* * *

الاسم : يونس مرعى

ذات صباح فى الجبل ، وقف يونس مرعى يرسم بعصاه خطا وهميا يقسم أرض الجبل إلى قسمين . ثم استدعى الحراس بعصيهم ليقفوا عند هذا الخط . . .

ثم وجه الينا الكلام :

ـــ هذا الخط هو قناة السويس ، وعلى كل من يعبر قناة السويس أن يدفع ضريبة .

بعد ذلك بدأنا ندفع الضريبة منذ الصباح وحتى الغروب .

فقد كان علينا أن نقطع هذا الخط ونحن نعـدو بالغلقان المحملة بالحجارة ، لنقلها إلى الطرف الثانى من الجبل . وكانت الضريبة فى كل مرة نقطع فيها الخط أن يمسك حارس بالغلق الملىء بالحجارة فيفرغه على رأس حامله ثم بضربه خمس شومات على بطن قدمه .

* * *

فإذا كان فى الدنيا من يهمه البحث عن حلقة مفقودة تربط ما بين المخدرات والجنون ، فيونس مرعى هو هذه الحلقة وهو دليل الإثبات .

ضابط فى مصلحة السجون ، طويل القامة رفيع الجسد أصفر الوجه . حركاته وسكناته وطريقة مشيه وكلامه تعطى تأثيراً واحداً وانطباعاً محدداً . رجل مستهتر لا يأبه لشىء .

إنسان هستيرى لا يقدر المسئولية ولا يتحمل ها فى الحياة . الوجه كـكل مدمنى الحشيش جامد كقناع من شمع والعيـون حمراء متسعة الحدقات واليد ترتعش ، والفم لا يفـرز إلا أدنى الـكلمات وأقذرها .

ومثل هذه الشخصية ، اختيرت بعناية لأ وردى أبو زعبل

لأنها تكتمل جزءا من الصورة المطلوبة . فاذا كان عبد اللطيف رشدى هو الجلاد البارد الأعصاب . فيونس مرعى هو القاتل البهلوان. يقتل فى جنون وهو يضحك يدمر وهو يقفز فى مرح ، يضرب وهو يلقى بالنكات .

فالمطلوب ، وهذا ما أدركه همت ومنير ، اضفاء صفة من عدم المعقولية ومسحة من الجنون لعملية تستدعى ذلك . لأن الهدف تحطيم الأعصاب وتدمير المعنويات وأشعار المعتقلين أن حياتهم لاقيمة لها . فكيف تكون لها قيمة وأحد المهيمنين عليها مجنون ؟ ! . .

ولكنه مجنون قاتل . فبضربة من شومته شج رأس فريد حداد ليسقط قتيلا ، وبعدها بساعات كان يدخل عنبرنا ليشبعنا ضربا حتى يؤكد أنه القاتل وأنه لا يهتم بهذا الإتهام .

* * *

. . . فى يوم الغناء ، وبعد أن ساقتنا العصى والهراوات للجبل لنقضى فيه يوم الأربعاء الدامى ، بقى سعد زهران فى « الأوردى » لأنه بقدم واحدة ، وكان من المتعذر عمليا أن يعمل فى الجبل بهذه الساق الوحيدة . . . وفى « الأوردى » زاره يونس مرعى طويلا ،

وايضربه طويلا ، وايضربه طويلا على هذه القدم الوحيدة بعد أن رفض أيضاً الغناء حتى أعجزه عن الحركة تماما ولمدة أيام . وكانت طريقة الضرب ، أنه كان يأمره بالوقوف على قدمه ثم يركله ليتعثر ويقع ، فيفرض عليه أن ينطرح على ظهره ويرفع قدمه ليتلقى ضربات الشوم على بطن قدمه ، بحجة أنه لا يجيد السير .

* * *

. . . فى يوم الغناء أيضاً ، وعندما عدنا من الجبل ، استقبلنا يونس مرعى على باب المعتقل واحدا واحداً بضرب شديد وفردى .

عندما تلقيت نصيبى ، لاحظ يونس مرعى أنى على وشك الإغماء لضربة من شومة أصابت كليتى اليمنى .

ففجأة سألنى.

— لديك طلبات ؟ !

ورغم علمى بأن هذا استفزاز وفخ ، فقد كان أسلوبنا دائما أن نصر فى أية فرصة تتاح لنا لطلب حقوقنا اللائحية ولذلك أجبت وأنا أعلم ما ينتظرنى .

— أريد علاجا طبيا فقد أصبت فى كليتى .

. . . بعدها أمر يونس مرعى ، الشاويش عبد السلام القوى العضلات ، أن يضربنى على قفاى ثلاثين صفعة حتى يتعادل الألم كما قال فى الرأس والجسد فلا أصاب بإغماء !

* * *

شخصية مدمرة حولها الحشيش إلى نفاية إنسان . ويونس مرعى كنفاية إنسان ، كان يحقد على كل واحد منا يحمل شهادة علمية . لذا إنصب غضبه بالذات على فؤاد مرسى واسماعيل صبرى وعبدالعظيم أنيس وعبد الرزاق حسن وفوزى منصور وعادل ثابت ومحمود العالم والفويسنى . وبالذات أيضاً على الدكتور لويس عوض الذى خصه بانتقام مضاعف عندما علم أنه قبل القبض عليه كان يحتل وظيفة هامة بوزارة الثقافة .

ومن يومها كانت إحدى هوايات يونس أن يطارد الدكتور لويس عوض بجواده طويلا وهو ينزل عليه بعصاه .

وبمثل هذا الحقد قتل يونس مرعى الدكتور فريد حداد . وبمثله

حطم ذراع الدكتور فوزى منصور وفرض على الدكتور عبد الرازق حسن أن يخلع بذلته وينظف مجارى « الأوردى » وأجبر الدكتور القويسنى على الاتيان بالزحف المقدس حتى تهاوى مغميا عليه .

* * *

. . . ذات يوم وعندما وصلت مستشفى سجن مصر مريضاً ، حكى لى طبيب المستشفى ، وكان رجلا رقيقاً ودودا ، وعندما تطرقت لذكر ما حدث فى « الأوردى » على يد يونس مرعى .

حكى لى أن يونس مرعى سبق ضبطه فى غرزة حشيش . وأن القضية حفظت بالنسبة له عندما اكتشف البوليس أن زميلا لهم ، هو أحد المتهمين بالتعاطى .

حفظ التحقيق ولكن الواقعة أبلغت لمصلحة السجون لاتخاذ الإجراء الإدارى المناسب .

. . . ثم علق الطبيب ، أن هذه الواقعة قد تكون السبب فى استعداد يونس مرعى للاشتراك فى أى عمل غير نظيف وهو يعلم أن هناك سيفا معلقاً فى يد رؤسائه من الممكن أن يستعمل فى أى لحظة .

وربما كان هذا هو أحد الأسباب . ولـكن الأمر لا يغير من أنه قاتل وأنه اشترك حتى قمة رأسه فى مجزرة أبو زعبل وأنه ما زال حتى الآن طليقاً يتمتع بوظيفته .

فالوحيد الذى احتفى من الحياة ، كان عبد اللطيف رشدى الذى قتل أثناء عمله فى بنى سويف . أما يونس مرعى فموجود فى الحياة وفى وظيفته ولم ينله عقاب . كذلك شأن حسن منير . . . وكذلك أيضاً شأن مرجان !

* * *

الاسم : مرجان .

وإذا كان عبد اللطيف رشدى هو القاتل بارد الأعصـاب . وإذا كان يونس مرعى القاتل المجنون ومدمن المخدرات . فمرجان شىء فريد من نوعه ! .

فهو كضابط بمصلحة السجون لابد وأن يكون قد مر بكلية الشرطة . . ولـكن المشـكلة أو السؤال . . . كيف أمـكن لـكلية الشرطة أن تقبل مرجان طالباً بها ثم تمنحه شهادة التخرج .

فهو كانسان أبعد ما يكون عن الخشونة . شعر مسبسب مجعد

بقصة . أظافر لامعة منمقة مصقولة . وجه يخلو من شعر الذقن وشعر الشارب . جسد مسترخ دائماً ... حتى على جواده مسترخ يهتز جيئة وذهاباً كما لو كان يركب جملا وليس حصانا . وحتى الحصان الذى يركبه ، حصان قد اختير بعناية ولا يركبه غيره . . أشبه بالبغل الكبير الحجم المستسلم الذى يصلح لجر عربة أو ركوب طفل .

. . . ثم صوت رفيع حاد ، وملابس أنيقة غارقة بروائح الكولونيا .

وهو إنسان خجول ، فهو الوحيد الذى يبعد دائماً ببصره عنا ويتحاشى أن تلتقى عيناه بعيوننا . وهو يخفى هذا الخجل الذى أشبه بالخجل الأنثوى والعفاف العذرى ، بصراخ حاد رفيع وأوامر متشنجة بالضرب والعنف المستمرين .

ولذلك فالحراس لا يهابونه ، فالحراس أن كانوا يهابون عبد اللطيف رشدى ، ويخشون حسن منير ، ويضحكون على يونس مرعى . فهم يتأملون مرجان دون اهتمام وينفذون أوامره بتلكؤ ودون انفعال .

ولذلك فرجان يحاول دائماً أن يحقق ذاته ويؤكد وجوده . والسبيل إلى ذلك أوامر لا تنتهى بالتعذيب والضرب .

ولذلك أيضاً يختار ضحاياه ممن ترتسم الرجولة واضحة جلية على أجسادهم .

ولما كان رفيقنا شبل اسماعيل مثال الريفى الطويل الجسد الممتلىء العضلات العريض الاكتاف . الجبل الريفى كما كان نسميه ، قد اختاره مرجان ليصب عليه جام غضبه . كما اختار عبد المنعم شتلا الفريد من نوعه فى تحمل أى أنواع التعذيب دون آهة واحدة ، ودون أن تختفى البسمة من شفتيه . . .

دون سبب كانت كلمته . . كلمة مرجان :

ــ اضرب ابن الكلب ده ! ...

ولذلك كانت مهمة شبل أن يبتسم دائماً وهو يضرب. ويحاول أن يلتقى بصره ببصر مرجان الذى من ناحيته يهرب ببصره بعيداً محتقن الوجه مجنونا بالغضب وكانت مهمة عبد المنعم شتلا أن يتقدم صوب مرجان دائما يطلب إيقاف الإرهاب ويحتج عليه .

. . . جلاد من نوع خطير فغضبه مفاجىء وثورته عنيفة وأوامره متطرفة قد تنتهى بالقتل ، وانتقامه حاد . . . جلاد خطير كان « مرجان » :

رجل يصلح حلاق سيدات . . . أو فنان ديكور . . . أو ترزى نساء . . . أو مانيكان أزياء . . .

ولكن هل يصلح أن يكون ضابطاً مهمته التعذيب ؟ !

تقول حكايات معتقلات أخرى أن ذلك قد حدث .

« فايرماجرس » ذئبة بلسن والتى كانت هوايتها عمل أباجورات من جلود ورؤس المعتقلين بعد قتلهم ، كانت امرأة شاذة جنسياً شبه مسترجلة . وكوخ صول بلسن وأوزفتش كان شاذا وسادياً ، ولهذا أزهق أرواح ألوف الرجال والنساء والأطفال .

وكولين ولسن فى عديد من كتبه يربط شخصية السفاح بالشذوذ . قد يكون ساديا يحب أن يقسو أو ماسوشيا يحب القسوة .

ولما كان مرجان ما زال حرا طليقاً ... يتمتع بوظيفته ، فمن المتعذر أن يوضع بين قضبان وتحلل شخصيته المريضة الملتوية .

الشيء الذى يجب بالفعل أن يتم . فمرجان أمر بالتعذيب وبكافة درجاته . وبأمره أشرف عدة رفاق على الموت ، واشترك مع القتلة من زملائه فى عمليات القتل التى حدثت بالفعل ، التى راح ضحيتها رجال كلهم رجولة وشرف . . لقد أمر مرجان بالتعذيب واشترك فى تنفيذه حتى القتل ، دون أن تهتز له شعرة من شعره الطويل المجعد ، فقط كان جسده يهتز ويرتج .

فمرجان شىء فريد من نوعه !

الاسم سيد منصور .

... بعد مقتل شهدى وتدخل السلطة السياسية وحضور النيابة للتحقيق . توقف التعذيب واختفى كل الضباط الذين اشتركوا فى عملية « الأوردى » إلا واحداً . وكان سيد منصور .

فالواقع أننا وخلال تحقيق النيابة لم نوجه اتهاما واحداً لذلك الرجل الذى سميناه « واحة الديمقراطية » .

ضابط بمصلحة السجون ، قمحى اللون ، رياضى الجسد ، وسيم القسمات . رجل بسيط ودود كنا ندهش ونحن نراه من هذه المجموعة المشوهة المريضة .

.. البعض فسر وجوده بأنه صمام أمن حتى لا يزداد الارهاب عن حده المفروض . والبعض فسره بأنه وجه مضيء لعملية قذرة ، مجرد غطاء يخفي الحقيقة ، أو قناع يحمي ويخفي العفن .

والبعض فسره بأنه أسلوب « أمريكاني » للتعذيب ، شخص يعذب ، وشخص يظهر تأففه من التعذيب .

ولكن الواقع المادي يقول إن سيد منصور كان الضابط الوحيد الذي حول التعذيب إذا ما انفرد وحده بقيادة المعتقل في أيام نوبتجيته ، أو الجبل عند اختفاء الآخرين ، إلى تعذيب شكلي ، وأفرغه من مضمونه الأساسي ، وحاول جاهداً أن يخفف عنا .

أيا كانت تفسيراتنا . . . وقسوتها أحياناً — وقد يكون لنا العذر ونحن الضحايا — إلا أن الحقيقة تتمثل في أن سيد منصور كان الشذوذ العاقل لعملية مجنونة هوجاء .

* * *

بعد مقتل شهدي كان من عادته أن يدعوني للحديث معه ويحاول جاهداً أن يبرر وجوده في الأوردي .. ولم يخرج التبرير عن أن الإنسان أحياناً يكون أضعف من العاصفة الهوجاء .

ورغم التبرير فقد كان صادقاً وهو يخبرنى عن ألمه لما حدث ، وعن تضرره لما شاهده ، وعن عجزه فى مقاومته .

وأعتقد أن سيد منصور كان صادقاً فيما أراد أن يقوله . . . فبعد عملية « الأوردى » أصر على ترك مصلحة السجون ليعمل بحرس الجامعة .

وأعتقد أننا جميعاً لا نحمل له إلا كل ود . فعلى الأقل فقد كان بتصرفه السلبى وتهاونه المقصود يعطى إيحاء للسجانة بالتهاون والتقصير وتحويل التعذيب إلى شكايات لا تؤلم .

ولهذا فلم نوجه إليه اتهاماً واحداً فى تحقيق النيابة .

ولكن وهذه القصة تروى اليوم فهناك جانب آخر يسأل عنه سيد منصور . . .

فالرجل الذى يصمت على الجريمة تحدث أمامه . . . الرجل الذى يرى إنساناً يقتل أمام عينيه . . . الرجل لا يتدخل والقاتل يذبح الضحية .

إنسان ضعيف ! . .

قد يكون سيد منصور رجلا طيباً . . . رجلا يكرة العنف ...
رجلا مسالما ...

ولكن ذلك لا يغير من أنه رجل ضعيف ، وأنة بضعفه ترك الجريمة تتم ... ثم وبعد أن تتم لم يشر صوبها . فعندما بدأت النيابة التحقيق فى ظروف أبو زعبل ، وظروف مقتل شهدى عطية الشافعى . اكتفى سيد منصور بالصمت .

... سيد منصور له طفلة رقيقة اسمها « راقية » . ولكن شهدى عطية الشافعى كانت له أيضاً طفلة جميلة رقيقة اسمها حنان .

وذات يوم سوف تسأل حنان راقية .

لماذا لم يتقدم والدك بذكر الحقيقة ويشير إلى قتلة أبى ؟! . .

— ١٠ —

كان هؤلاء هم رجال حسن منير . وكانت المفاجأة التى دبرتها لنا المباحث العامة وباتقان هى الجبل .

ففى الجبل ، تلك العين الفارغة المتربة فى بطن الأرض ،

تفوص محوطة بها الجبال البازلتية من كل جانب ، كانت العملية الأساسية لتصفيتنا كشيوعيين قد رسمت بعناية ، وأسند التنفيذ لضباط حسن منير .

فالجبل هو سر اختيار « الأوردى » ليكون معتقلا يضمنا . وفى سبيل الجبل ، عزلتنا المباحث العامة هذه العزلة التامة عن الخارج ، وأشعلت نيران الإرهاب فى المعتقل .

.. كان الهدف أن نوضع فى إطار معين . هذا الإطار تحكمه العصا ويسوده الإرهاب وتسيطر عليه المهانة ، حتى نستسلم لنساق صوب الجبل .

أما لماذا الجبل ؟ . . . ولماذا الإصرار على العمل فى الجبل ؟ . . .

لماذا هذا الخروج الصريح على أى قانون يفرض أشغالا شاقة على معتقلين لم يحكم عليهم بعد . خروج على أى قانون وأى مبدأ عالمى لحرية الإنسان ، واختراق وانتهاك لأى شريعة متحضرة .

لماذا وهذه الأشغال الشاقة تفرض ، فهى تفرض بصورة تخرجها عن حيز الأشغال الشاقة وتخضعها تحت وصف لا يقل عن الإبادة بطريق بدائى وحشى :

فوراء ذلك سبب ، وخلفه يكمن منطق .

تجربة تعلمتها المباحث العامة خلال السنين الطوال .

تجربة تحكى القصة التالية ...

* * *

... ذات يوم وفى عام ١٩٥٥ ، حدث نوع من الصدام بين المسجونين الشيوعيين بسجن القناطر أو إصلاحية الرجال ، كما كان يسمى ، وإدارة السجن .

ولم أكن أعلم سبب الصدام ، وإنما القصة تبدأ عندما أعلنت الإدارة حالة الطوارىء ، وأدخلت السجن حرساً مسلحاً ، لتبدأ عملية تأديب ، أحد مظاهرها كالعادة التفتيش .

وكانت المفاجأة التى قلبت الموقف رأساً على عقب ، تتلخص فى ذلك الاكتشاف الذى وقع عليه أحد السجانة وبمحض الصدفة وفى أحد عنابر السجن .

فضربة غير مقصودة من قدمه ، أشعرته أن أحد أجزاء أرضية العنبر تتحرك وغير ثابتة فى مكانها .

وفحص دقيق بعد ذلك أدى لاكتشاف حفرة فى الأرض قد بنيت بعناية وغطيت من جديد بمهارة .

وأن فى هذه الحفرة التى دعمت أركانها بطريقة هندسية ، تثوى عشرات المخطوطات السياسية والنظرية والثقافية .

مكتبة كاملة لا تحوى فقط هـذه المخطوطات ، وإنما تحتوى أيضاً نماذج من مجلات وجرائد سياسية وثقافية تصدر وبانتظام وسراً من السجن ذاته .

. . . إن الحفرة ليست تلك فقط ، وإنما بها يرقد أيضاً أرشيف كامل لعديد من الكتب والمطبوعات ، . . . نسخ كاملة مكتوبة على ورق شفاف خفيف من ورق الأرز أو « البفرة » وبخط دقيق للغاية ، إلى درجة أن عشر ورقات من هذا النوع كانت تحوى كتابا كاملا أو مخطوطاً بأكمله .

. . . كان الاكتشاف مفاجأة لإدارة السجن ، كما كانت

طريقة اعداد المخبأ مفاجأة أخرى. فقدا نتزع المسجونون الشيوعيون جزءا من أسفلت الأرضية ، وأفرغ المكان الذى وصل إلى حجم كبير نسبياً — حوالى نصف متر فى نصف متر — من التراب ، لتحصن الحفرة بقوائم من الخشب ودعامات حتى تتحمل أى ثقل خارجى . . . ثم وبعد وضع المكتبة داخلها، أعيد الأسفلت بعد لحمه من جديد ببقية أسفلت الحجرة .

وكانت طريقة اللحم ذكية رغم بدائيتها . فقد استعملت الحلاوة الطحينية التى تصرف كغذاء ، كأداة لاصقة لاحمة . . وذلك بأن وضعت بين أسفلت الحفرة والحجرة لقشعل فتذوب ويذوب معها الأسفلت ويلتصق من جديد .

. . . بعد ذلك لم يتبق سوى دهان أسود مستخلص من الهباب وبعض الألوان التى هربت سراً من المصنع الملحق بالسجن ، حتى يستعمل فى إخفاء ما قد تم وحدث .

كان الإكتشاف مفاجأة لإدارة السجن ولكنه لم يكن مفاجأة للمباحث العامة . فعلى طول السنين التى أستقبلت فيها السجون الشيوعيين ، كانت المباحث تكتشف تلك الحقيقة التى حرص عليها

الشيوعى حرصه على الحياة ذاتها .

والتى تتلخص فى : أن الإستمرار فى ممارسة الثقـــافة والنظارية والسياسة ، جزء رئيسى وضرورى للاستمرار دون إنهيار داخل السجون . وان الحياة بعيدا عن الأحداث وتحايلها وإتخاذ مواقف يومية منها ، يعنى الموت فعلا .

. . . على مر السنين ، كانت المباحث العامة ، أحيانا بالصدفة وأحيانا بالقصد المتعمد ، تكتشف الدليل على هذا النشاط فى السجون وفى مخازن المباحث العامة وملفاتها العديد من القضايا ، نماذج وحتى اليوم لهذا النشاط .

كتب ومطبوعات ونشرات وحتى راديوهات أما مصنوعة باليد ، أو صغيرة مهربة بكافة الوسائل لداخل السجون .

وفى ضوء ذلك كله ، كانت النتيجة تبرز واضحة جلية .

فاذا كان الشيوعيون فى السجون يعتبرون النشاط الفكرى والسياسى ضروريا لاستمرارهم كما تحت شمس الحرية تماما .

فانه وداخل السجن ، أكثر أهمية وضرورة ، لأنه الدعامة الأساسية للصمود .

وإذا كان الأمر كذلك ، فان منع هذا النشاط وخنقه وتدميره ، يصبح الهدف .

إذا كان من الصعب خنق المنبع الذى منه تشرب هـــذه المطبوعات والأوراق والأقلام والأحبار .

إذا كان من الصعب محاصرة الزيارات والحراس والضباط وحتى النزلاء العـــاديين . . . كل تلك الأشياء التى هى وسيلة للاتصال بين السجن وخارجة .

فالحل إذن هو خنق المصب ومحاصرته .

ببساطة عزل الشيوعيين فى سجن يسمح بهذا العزل . ثم فرض ظروف تشل إمكانية أى نشاط فـكرى .

ومن هنا كانت فـكرة « أوردى » أبو زعبل . . . ثم الإرهاب والجبل .

فالتصفية السياسية قد تحدث ، بالعزل الكامل والإنهاك البدنى المستمر والإرهاب المتواصل .

كانت تلك فكرة المباحث العامة .

فكرة تحويل الإنسان إلى كائن لا يفكر إلا فى استمرار وجوده أو بقائه .

أو كما يقول كولين ولسن فى وصف أسلوب رجال العاصفة الهتلرية فى معتقلات النازى .

« فرض نظام سموه « لم يعد إنساناً » . فالإنسان بالتعذيب والقهر المتواصل يتراجع عن إنسانيته حتى حيوانيته ، أى الغريزة . والغريزة هنا هى غريزة البقاء التى تخنق وتمحو كل ما عداها من غرائز » .

أو كما ذكرت ملفات محاكمة مجرمى الحرب فى نورمبرج :

« .. تحويل الإنسان إلى كائن دون إرادة . إذا ما كان قادرا على التحرك فهو يتحرك كالآلة . وإذا ما عجز ليسقط فهو غير قادر

على الاتيان بأى حركة أو إنفعال . يمكنك أن تطأ جسده فلا تهتز له شعرة ، لأن شيئاً فى الحياة لم يعد له قيمة . لا إعتراض، لا صرخة ألم ، ... رجال دون إنفعال أو فكر ... أجساد بدون أرواح . »

... تلك كانت فكرة المباحث العامة ... فهل نجحت ؟!

* * *

ذات يوم أيضاً ولكن هذه المرة فى عام ١٩٦٠ ، وفى بدايته . وبعد نزولنا للجبل بحوالى الشهرين استدعانا حسن منير فى يوم من أيام الجمع ، أى فى اليوم الذى يعتبر عطلة ولا يجوز العمل فيه ... إستدعانا ، عنبر (أ) بأكمله ، وكعادته عندما يكون قد اخترع خطوة جديدة من إرهاب أو تحقير .

وخرجنا لنساق خارج المعتقل ، يتولى أمرنا هذه المره يونس مرعى ، وليبدأ نشاطه بحركة جديدة من تعذيبه الهستيرى . هذه المرة اخترق صفوفنا يحمل فى يده عصا قصيرة رفيعة لينزل بها على رؤوسنا واحدا بعد الآخر وهو يتظاهر بعدنا . ومرة بعد الأخرى كان يتظاهر بأنه أخطأ فى العد ليبدأ من جديد واتنزل العصا على الجماجم المحلوقة الشعر .

بعد ذلك صدر الأمر بالسير ، لنتجه في طريق مترب غير الطريق المعتـــاد الذى نقطعه يوميا ونحن فى طريقنا للجبل أو فى طريق عودتنا منه .

طريق قادنا بعد دقائق من الأرض المتربة الصفراء التى تتميز بها المنطقة المحيطة بالليمان ! لنجد أنفسنا داخل ريف مصر .

وأحسست وكأن الحياة تقتحم فجأة صدرى بعد طول موات ، وبصرى ليستقبل تلك الخضرة والأشجار والمزارع .

... أحسست بالنشوة تجتاح وجدانى وعينى تقبل تلك الألوان التى اختفت من حياتنـا زمنا ... وأنفى ينهل من روائح الخضرة والنضرة ... وقدمى تغوص فى الطين ، بعد التراب والحجارة وشظايا البازلت السامة .

ومشينا لنتوقف أخيراً أمام كوم كبير من روث البهـائم ومخلفاتها، لننحنى نملأ القلقان التى نحملها بأيدينا ، فقد كان حسن منير يريد هذا الروث حتى يستعمله كسماد لحديقة « الأوردى » الخارجية والمحيطة بمكتبه .

وتجمدت يدى، كما تجمدت أيدى رفاق من حولى . ونحن نلحظ فجأة فلاحة شابة تقترب ومعها قطيع من الماعز .

كنا نرى الأنثى ولأول مرة بعد شهور طوال، ولذلك التهمناها بأعيننا ... ربما لأنها أيضا رمز للحياة التى حرمنا منها . .

وعندما حملنا الفلقان أخيراً وسرنا نبتعد ، كانت ما زالت فى مكانها متجمدة وفى عينيها نظرة لا أعتقد أننى يمكن أن أنساها . نظرة حملت كل الدهشة والخوف والإشمئزاز والصدمة .

... بعدها بساعات وعندما هبط المساء وأقفل علينا العنبر ، انتقلت من مكانى إلى الرصيف المقابل حيث يرقد سعد زهران وحكيت له هامسا ما قد حدث . فسعد وبعد أن سحب حسن منير قدمه الخشبية ، كان أحد القلائل الذين لا يبارحون المعتقل .

وفى الظلمة خرج صوته هامساً :

— أنا أعيش الجبل من خلال ما يتركه على وجوهكم . وربما أنت لا تلحظ تلك البصمات لأنك تعيش التجربة ، بينما أنا أرقبها .

... لقد تغيرت وجوهكم ... أنتم الآن شىء آخر :

وصمت ، تدور الكلمات فى رأسى : إلى هذا الحد ؟ ! .

وتجمعت الصور . . .

حاسة الشم قد تغيرت ، فالرائحة الكريهة لا نشمها . حاسة اللمس تغيرت ، الأصابع جافة سوداء مليئة بالبثور . حاسة السمع أرهقت وشوهت ، لا نسمع تغريد العصفور ولكن فقط متنبهة لدبيب أقدام السجانة وهم يتسللون قبل اقتحام العنبر . حاسة التذوق انعدمت لا تعاف القذارة ولا تأبه بسبب الجوع للحشرات والذباب. حاسة البصر تهالكت من طول استمرار اللون الواحد الرمادى فى العنبر . . . والأصفر الملتهب فى الجبل .

. . . الجلد مشدود أسمر ، والأعصاب مرهقة كأوتار شدت حتى درجة الإنفجار . والعقل لا يفكر ، إنما الغريزة تسيطر تريد البقاء وتتجنب التهلكة وتقود الجسد الذى أصبح كالحيوان المطارد يحاور الموت ويناوره .

. . وصف الإنسان يختفى ويحل مكانه وصف آخر !

حتى الغريزة الجنسية احتجبت ، لا تفيق إلا وأجسادنا نائمة

منهكة بعد عذاب النهار ، لتستهلك نفسها رغم الجسد النائم والعيون المغلقة . تستهلك نفسها ليلة بعد الأخرى كأنما تريد أن تؤكد وجودها وتقول لصاحبها : أنت حى . . . ما زلت حيا ! . .

هل هو الضرب المستمر الذى فرض توتر الأعصاب وبالتالى الشبق الجنسى المتواصل . . . أم هى الرغبة فى الحياة يحركها العقل الباطن ، كمريض السل مثلا وشراهته للجنس ؟ ! . .

أيا كانت الإجابة . ففى تلك الليلة لم أنم إلا بعد ساعات طوال، كانت خضرة الصباح قد غابت فى ظلمة العنبر،ورائحة الحياة تبخرت فى روائح الأجساد المستهلكة المتسخة .

ومن حولى ، كانت التأوهات تتحشرج فى الصدور . ضربات الصباح وآلامه تزفر بها الأفواه أخيراً . فساعات النوم ، كانت الساعات الوحيدة التى لم نكن لنستطيع أن نكبت فيها آلامنا ونحبس تأوهاتنا .

* * *

فى الجبل ، كانت الحلبة التى اختارها حسن منير لنفقد آدميتنا .

وفى الجبل سالت دماؤنا ووطئت كرامتنا وامتهنت أجسادنا وأشرف على الموت العديد منا .

وفى الجبل كان العذاب الأكبر .

وبدأ ذات يوم بعد فترة قصيرة من وصولنا « اللاوردى » .

. . . أول يوم كان « بروفة » حضرها همت .

بعد ذلك وقد نجحت « البروفة » وصدق عليها الجلاد الأكبر . . . توالت الأيام والشهور ، نعيش المأساة .

يوم « البروفة » كشأن كل شىء فى « الأوردى » بدا فجأة .

فقبل الفجر استيقظنا كما كنا نستيقظ كل يوم . دورة المياه ثم تطبيق البطانية والبرش . . ثم انتظار أن يفتح العنبر ونتلقى تعذيب الصباح .

ولكن اليوم بدأ مختلفا عن غيره . فعندما فتح العنبر ، كان الضرب أكثر عنفا من أى يوم آخر وكانت « لف للتفتيش » تعاد مرة بعد الأخرى ، حتى بدأنا ندوخ وتخور أجسامنا .

وعند ما انتهت الحلقة ، لم يقفل علينا الباب وإنما صدرت الأوامر لنخرج إلى فناء المعتقل ، لنرى بقية العنابر وقد خرجت كلها واصطفت فى ثلاثة صفوف لنصطف مثلها ، ثم يصدر الأمر فنتحرك يحيط بنا عدد كبير من الحراس المسلحين نخرج من باب المعتقل .

وسرنا رؤوسنا مطرقة كما علمتنا الأوامر ، نشهد خلسة بين الجفون شبه المسدلة همت فى سيارة ، وحسن منير وضباطه فوق خيولهم ، ومن حولنا صفين من حرس مسلح بالبنادق والمدافع الرشاشة ، وخلفنا عدداً آخر من الحراس بمدفعى « برن » .

وسرنا ، القلوب واجفة والأعصاب مشدودة حوالى نصف الساعة ، لنجد أنفسنا نقترب من حافة هوة كبيرة تمتد كدائرة واسعة . حفرة تبلغ عدة كيلومترات تحوطها التلال من كل جانب .

وسرنا نلمح من بعيد وعلى يميننا حفرة أخرى تماثلها يعمل فيها عدة مئات من نزلاء اللمان يلبسون بدلا زرقاء . . يتوقفون

لحظة وهم يشهدون موكبنا يقترب ، ثم يعملون يواصلون قطعهم للحجارة وصيحات غاضبة تأمرهم بعدم الالتفاف صوبنا .

وسرنا ندخل الحفرة الواسعة من فتحة فيها لنجد أنفسنا فى بطن الجبل ومن حولنا تشمخ جدرانه عدة أمتار فلا نرى سوى السماء تتوسطها الشمس الحامية ، وأشباح سوداء بعضها ترقبنا والبعض تصوب أسلحتها نحونا .

وساد صمت ثقيل ، لا يقطعه أى صوت . صمت استمر عدة دقائق لينتهى فجأة ونحن نسمع دبيب أقدام كثيرة تأتى من خلفنا ، تدخل الحفرة كما دخلنا وتقترب . .

بعدها بدقائق بدأت العملية !

* * *

. . . صفارة طويلة أطلقها « الصول » ما أن انتهت حتى تفرقت صفوفنا تجرى مبعثرة وعشرات الشوم والهراوات تنزل علينا فجأة .

كان الجبل قد امتلأ برجال يلبسون ملابس كاكية هم الحرس

الخـــارجى لليمان . . . وبدأ هؤلاء مع السجانة الإطاحة بعصيهم فى صفوفنا .

. . . صفارة طويلة أخرى أطلقها الصول ، لتقودنا العصى هذه المرة لنتجمع من جـديد ، ومرة بعد الأخرى تـكررت العملية . الأمر يصدر من صفارة وشوم حتى فهمنا المقصود .

. . . بعد ذلك ، نزل حسن منير ، بطن الجبل على جواده يتبعه ضباطه الثلاثة على خيلهم لتبدأ عملية جديدة .

هذه المرة تجمعنا فى نهاية الجبل بعد أن طاردتنا العصى ، لنملأ « غلقان » جلدية سميكة بالتراب والحجارة ليضع كل واحد منا « غلقه » على كتفه ثم يجرى مئات الأمتار هى طول الجبل ، ليفرغ الغلق فى طرفه الاخر ، ثم يعود يبدأ من جديد .

ذلك يحدث ، ونحن نجرى بين الحراس الذين وقفوا على هيئة صفين طويلين بطول الطريق الذى نقطعه وذلك يحدث وعلى الأجساد عند ملء « الغلقان » وافراغها العدو جيئة وذهابا ، تهوى المراوات والشوم .

ذلك يحدث ، والضباط يتابعوننا بجيادهم الراكضة ، وأقدمنا

الحافية تدمى من شظايا البازلت الحاد والمسمومة — فكل جرح يتسبب من البازلت لابد ينفج — ، وصدورنا تتحشرج من العدو المتصل .

وسيء الحظ من وقف لحظة يلتقط نفسا ، أو تعثر ووقع ، أو سقط منهكا ، أو يئس فتوقف ، عندها العقاب الفردى شديد حتى يعود يبدأ من جديد .

... لساعة كاملة استمرت العملية ، لتدوى الصفارة نتجمع ، ننتظم فى صفوفنا الثلاثة ونعود للأوردى .

... عند باب « الأوردى » تم تفتيشنا واحدا واحدا ، وضربنا واحدا واحدا ...

كانت « البروفة » تقضى بذلك حتى نتعلم !

• • •

فى المساء ، قاد حسن منير بنفسه عمليــة الضرب ولف للتفتيش المعتادة كل ليلة . وفى صباح اليوم التالى قاد نفس العملية الصباحية .

ثم نزلنا للجبل من جديد .

وهذه المرة كان وقت « العمل » عدة ساعات . بدأت بالصباح وإنتهت بالغروب .

ثم توالت الأيام . . . وكل يوم يحمل الجديد من ألوان « العمل » .

بدأنا نقطع الأحجار ، بالمقلات والشواكيش والمطـــــارق الحديدية .

وبدأنا نتعلم كيف نورد « المقطوعة » وهى « ثمانية غلقـــان » مملوءة عن آخرها بالبازلت .

وبدأنا ندرك أن أى تحرك لا يجوز الا إذا كان عدوا . وأن للحارس الحق والسلطان المطلق ... يضاعف المقطوعية إذا أراد ، يضرب إذا أراد يعاقب ، إذا أراد ...

بدأنا نفهم بعد أن نقلنا جبلا من التراب والحجارة ثقله عـدة أطنان من طرف الجبل حتى طرف المقابل ، ثم نعيده من جديد

مكانه الأول ، ثم نبدأ من جديد ... إلى جانب كل ذلك «العمل» الآخر والشاق فى تقطيع الأحجار ، أن الهدف هو . . . الإنهاك والضرب حتى التعجيز ... وقد يكون ... يكون الموت .

ومع الحقيقة التى فهمناها ، عشنا العذاب الأكبر . أيام لا تريد أن تنتهى ، تهشمت فيها ضلوع وأطراف الكثيرين . . . وتحولت الأجساد إلى كدمات زرقاء وجروح متقيحة وأورام والتهابات .

مع الطاحونة الدموية التى هدفت لسحق الجسد والنفس أيضا ... والتى هدفت لنتحول إلى تلك المسخ البشرية التى لا تفكر إلا فى البقاء .

. . . معها ورغمها ، كان تفكيرنا يسطع . . . كيف نقاوم ؟! ..

كيف نقاوم ونصمد ، وكيف نقف فى مهب العاصفة الهوجاء ...

كيف نوقف التصفية المادية ... والتصفية السياسية ؟!.

ومع التفكير المختلس ، المقتطع عنوة من ساعات العذاب وأيام

الألم وليالى الإنهاك والمرض ، كنا نضع ونرسم أرضية الصمود .

... فهؤلاء ... كل هؤلاء الذين ظنوا أنهم بتلك الطاحونة الدموية ، قد توصلوا إلى أسلوب تحطيمنا .

كلهم إبتداء من السيد حتى المنفذ الصغير ، كان قد نسى شيئاً آخر إمتلكناه منذ زمن ولم نفقده . ما يمكن أن يسمى بالسلاح السرى

الفهم الماركسى للدنيا والتاريخ .

الفهم العلمى والثورى للحياة .

ذلك الفهم الذى يبدأ بأن يقول ... إن الإنسان هو الذى يصنع قدره ... وأن الشعوب تصنع التاريخ . وأن التاريخ لا يمكن وقف مسيرته . . لا يمكن أن يوقفه كائناً من كان ! .

... وكان أن بدأنا معركة الصمود !

.. وبدأناها كشيوعيين !

— ١٢ —

التعذيب البدنى

— التشريفة .

— طابور الرياضة .

— الزحف المقدس .

— الجبـــــل .

— الجوع .

— التأديب .

— الضرب .

— النوم على الأرض .

— العرى .

— الحفاء .

— منع العلاج الطبي .

— منع الصابون .

— حلق الشعر .

ـــ قذارة الطعام .

التعذيب المعنوى :

ـــ منع الزيارات .

ـــ منع القراءة .

ـــ منع الحديث مع السجانة .

ـــ منع الحديث أثناء العمل وأثناء التواجد فى العنبر .

ـــ لا طلبات .

ـــ التحقير المستمر والشتائم .

ـــ لا أسماء ... فقط بدل الإسم نمرة .

***

تلك هى مجموع قائمة المصيلحى والتى نفذها همت ومنير .

وهى قائمة يدخل فيها عديد من الإبتكارات والإختراعات .

فكل تعذيب مبتكر نجح ، طبق كعادته . فعندما صح لنا وبعد حوالى الشهرين بحمام جماعى وبمياه ساخنة مرة فى الأسبوع والذى فرضه انتشار حالات الأكزيما والجرب . أستعمل هذا الحمام لتعذيب جديد .

ففى الحمام حشرنا عراة لتنزل علينا المياه شبه مغلية ، ثم يدخل السجانة ليلهبوا أجسادنا وبعد أن خرجنا من الحمام عراة تقدم بعض الحراس ينتزعون بأيديهم شعر العورة من الأجساد . وكان السبب لذلك أن حسن منير أخبرهم أننا نترك هذا الشعر ينمو لأننا يهود ! .

وعندما بدأ المعتقلون ونتيجة للجوع يأكلون ما يصرف لهم من طعام ربما يحوى من حشرات وذباب لا يأبون أو يتقززون بدأت كميات الطعام تقل حتى أوصل العديد منا إلى حالات أنيميا حادة .

وعندما تعلم المعتقلون كيف تقطع الأحجار وأتقنوا عملهم ، إزدادت المقطوعية واستعملت كوسيلة للتعجيز حتى يتم بعد ذلك الضرب والإيذاء البدنى كعقاب .

وعندما بدأ المعتقلون يتحملون الضرب ويتعلمون كيف يتجنبون

أن تقع الضربات على الأماكن الموجعة والحساسة . زاد العقاب الفردى والجماعى . مثلا كان يفرض على عدد معتقلين أن يناموا على الأرض ليمر حارس يضربهم واحدا بعد الآخر . . . وأطلق يونس مرعى على هـذا الابتـكار إسم « البيانو » وعندما فهم حسن منير أخيراً أننا نصمد وأننا سنصمد إزداد التعذيب ليسقط الشهداء .

* * *

هذا حدث على أرض وطننا . . . مصر .

وعلى أرضها أيضا حدثت قصة أخرى . . . كان لابد وأن تحدث .

حدث الصمود . . . وهذه حكايته .

فالصمود أيضاً قصة !

الصمود

— ١ —

قبل أن نفيق من صدمة التشريفة ونفكر كيف نصمد فى وجه عاصفة التعذيب الهوجاء ، كانت أجسادنا تبدأ وحدها طريق الصمود .

قبل أن يفكر العقل ويخطط ، كانت الغريزة قد خططت وبدأت فى التنفيذ .

فالجسد من أجل البقاء . . . تبلغ أحيانا قوة تحمله حداً يفوق الخيـــال .

* * *

... بعد مقتل شهدى وعلى أثر ايقاف التعذيب ، سمح لأهلنا أخيراً بزيارتنا . وعندئذ فقط بدأنا نكتشف التغيرات الجسمانية التى اكتسبتها أجسادنا .

فعندما سمح بالزيارات ، حاولنا أن نقابل أهلنا وفى أقدامنا

أحذية . لكن الذى حدث أن قدما واحدة لم تستطع أن تحتذى حذاء . فأقدامنا كانت قد تغيرت .

... القدم كبرت وزاد حجمها . تفلطحت واكتسى باطنها بجلد سميك يمكن أن يخترقه دبوس حاد عدة ملليمترات قبل أن يشعر صاحبها بوخز هذا الدبوس .

... فرضت الطبيعة على الجسد قدماً أخرى . قدماً تستطيع أن تمشى على الأسفلت المتوهج بالحرارة دون أن تحس ، وأن تطأ على شظايا البازلت المسمومة دون أن تدمى ، وأن تتلقى على باطنها العقاب الفردى الذى لا يقل عادة عن ثلاثين شومة ، دون أن تتهشم .

... ليس القدم فقط ، وإنما أعضاء وأجهزة عديدة فى الجسد تبدلت لتلائم الظروف التى فرضت عليها .

... فالأذن ، أصبحت مرهفة ، ولنوع معين من الأصوات . ففى كل عنبر من عنابر « الأوردى » ، ظهر معتقل سماه زملاؤه « بالرادار » .

هذا المعتقل يستطيع أن يستمع دبيب أقدام الحراس وهم يتسللون

من بعيد ويحدد أين يتجهون وأى عنبر يقصدون ... ليعطى الإنذار .

والعضلات أيضاً تغيرت ... فالعدو المستمر وطوابير الرياضة والعمل فى الجبل ، قد أكسبها رغم كل الظروف قدرة على التحمل وصلابة ونمواً . ولدرجة أن العضلات قادتها الغريزة لتتركز وتنمو فى الأماكن التى تنزل عادة عليها ضربات الشوم والهراوات ... الظهر والقدم والاكتاف .

... كما أصبحت الأجساد مرنة لماحة ، تتفادى الضربات فى ذكاء وتحمى موطن الخطر وهو أساساً الرأس ، فى نبوغ ومرونة .

... شيئاً فشيئاً . . . انتقلت المشكلة ، مشكلة التعذيب ، ليتحمل الجلاد والمعذب جزءاً من نتائج تنفيذها ، فكل واحد منا أصبح خفيف الحركة كالغزال ، مرنا ، تزداد طاقة تحمله يوماً بعد يوم . وأصبح ضرب الأجساد واصطيادها ومطاردتها بالنسبة للجلاد، مشكلة تحتاج لمجهود وتعب .

ولذا لم يكن غريباً أن تنتشر بين صفوفنا نكتة تقول « اننا لن نموت قبل أن يموت السجانة من مجهود الضرب » . « حنموتهم من الضرب » ! ..

شيئاً فشيئاً ، تحملنا ليالى الشتاء عرايا على الأرض لا نرتجف ـ وجحيم الصيف نعدو فى الجبل ولا نسقط .

مشا كل المدنية . . . السعال والزكام والحـــرارة والضغط والصداع ، كلها اختفت . الذى بقى فقط : كيف يستمر الجسد فى البقاء .

لقد تحول الجهاز العصبى كله إلى مرجل يغلى هدفه التحمل والاستمرار . استمرار الحياة وتحمل الألم .

* * *

... أذكر أنه بعد إيقاف التعذيب مباشرة ، حضرت لجان طبية للكشف على بعض المعتقلين . وكان السبب فى حضورها ، ضغط الرأى العام العالمى ونشر وإذاعة أخبار عن مقتل بعض المعتقلين . وضغوط وكفاح عائلاتنا القلقة على حياتنا . والدور العظيم الذى لعبته الدول الاشتراكية فى المناداة بالإفراج عنا وإيقاف التعذيب .

واكتشف الدكتور « فتحى » طبيب أسنان مصلحة السجون ، خراجا فى ضرسى وأمر بنقلى لمستشفى سجن مصر لخلعه .

وقبلت المباحث على مضض وبعد مقاومة عنيفة ، ولكنها قررت عودتى فى نفس اليوم لأبو زعبل وفرضت ستارا عنيفاً وشديداً لعزلى خلال فترة تواجدى فى سجن مصر ، ومنع لقائى بأى إنسان .

وعندما بدأ الدكتور فتحى فى محاولاته لخلع الضرس ، اكتشف أن مستشفى السجن لا تحوى أى بنج موضعى . واكتشفت أنا أن على الاختيار بين خلع الضرس دون بنج أو العودة لأبو زعبل والانتظار مدة غير محددة حتى أعود من جديد .

وكان أن خلعت فى ذلك اليوم ضرسين دون أى بنج .

وكان أيضاً وبعد خلع الضرسين أن اجتمعت سراً بالدكتور شريف حتاتة لأبلغه بما حدث فى أبو زعبل تفصيلا لنقله للخارج ، وعن ظروف مقتل شهدى .

... أذكر أن الألم كان مزعجاً ، ولكنه كان محتملا . وأن الحديث مع الدكتور شريف الذى دخل غرفة العيادة من نافذة ، والمخبر يقف خلف الباب المغلق مطمئناً ، كان ممتعاً . .

ببساطة ، كان جسدى قد تعود على احتمال الألم ، فتحمل .
وكانت مهمة اتصالى بالخارج ضرورية فتمت .

* * *

ذات يوم قرر حسن منير أن يعاقب محمود السكاوى عقابا خاصا ، لأنه رفض الغناء يوم الأربعاء الدامى ، بينما أبلغ الحراس أن محمود يغنى لنا وبعد قفل العنبر فى المســاء ، أغانى أم كلثوم وسيد درويش .

وشاهدنا محمود يضرب أمامنا ، لنلاحظ فجأة أنه عندما نهض لا يرى طريقه بوضوح ، وأنه يتخبط وهو يسير .

فى ذلك اليوم ، فقد محمود إبصار إحدى عينيه نتيجة لانفصال شبكى ، ومن ضربة وجهت إلى رأسه .

بعدها نزل محمود الجبل ليعمل ويتحمل ويغنى كل ليلة لنــا أغانيه الحلوة .

ولم يعد الإبصار إلى عين محمود إلا بعد ذلك بسنين عندما خرج إلى الحرية وأجرى لعينيه عملية جراحية معقدة .

... أذكر أن ممدوح الجندى ، ذلك الرفيق الرفيع الضاحك أبدا ، كان رغم مرضه وهزاله ماردا في الجبل ، يعمل للآخرين ويساعدهم ويقدم المقطوعية مضاعفة لتعويض أي رفيق يعجز عن تقديمها .

أذكر أن عوض الباز العامل بشبرا الخيمة ، كان يصر على أن يطلق ضحكة هادئة طويلة بعد كل تعذيب طويل يناله عنبرنا ... ومع ضحكته كانت النفوس تبتسم لتقاوم .

... أذكر أن نبيل الهلالى وأمين شرف وشبل اسماعيل رفضوا في يوم الأربعاء الدامى أن ينالوا حقهم من الراحة ، ليتحملوا الضرب بدل آخرين أوشكوا على السقوط إنها كا واجهادا . .

أذكر عبد المنعم شتلا واحتماله للتعذيب الذى يفوق الحدود .

... أذكر ... وأذكر ..

ومع كل ذكرى لابد أن أذكر رفاقى .

نوع رفاقى .. نوع معدنهم ونوع تحملهم ونوع بطولاتهم .

فهم بعد الغريزة . كانوا الفكر الصامد الذى دحر البربرية والارهاب .

بالعرق والدم والإصرار .. كتبوا وخططوا ونفذوا الصمود .

وكانت أروع قصة هى قصة « انتباه » ... و « الدكتور شومة » ! .

— ٢ —

هل يمكن أن نضحك .. أن نغنى .. أن نحلم ؟! ..

هل يمكن أن نفكر رغم كل تلك الظروف ؟!

هل يمكن أن نقاوم الواقع بأثمن ما يملكه الإنسان ، وهو عقله

هل يمكن أن نفشل هدف التآمر فى تصفيتنا سياسياً .. فى فرض الموات الفكرى علينا ؟! .

نعم ممكن ! ..

كان هذا هو القرار :

لتتكون مجلتان هوائيتان

الأولى جادة وسميت « انتباه »

والثانية ضاحكة وسميت « الدكتور شومة »

* * *

تكونت مجلة « انتباه » من مجلس تحرير يرأسه الدكتور عبد العظيم أنيس . وكانت المهمة شاقة للغاية . فلم يكن الأرهاب وحده الذى على أعضاء تحرير المجلة أن يقهروه مرتين . مرة وهم يحضرون العدد كل أسبوع ، ومرة وهم يذيعونه على العنبر ثم ينقلونه إلى مندوبى التحرير فى العنابر الأخرى ليعيدوا إذاعته من جديد .

وإنما كان أيضاً على المحررين أن لا يكتفوا بالمواضيع النظرية والثقافية والفنية ، وإنما أيضاً الاهتمام بالتحليل السياسى الأسبوعى .. وما يعنى هذا الاهتمام من تسقط المعلومات وتلمس الأخبار رغم العزلة الكاملة عن الخارج والانقطاع الشرس عن الأحداث الخارجية .

وكما ركز أعضاء التحرير جهودهم لتنظيم مواد كل عدد وتحضيرها ... كرس كل المعتقلين فى أبو زعبل جهودهم لتموين المجلة بالأخبار .

وكان عملا مذهلا جبارا .

فأحياناً كان الخبر مصدره قطعة فى حجم الكف من جريدة رماها حارس أو سجان بعد استعمالها للف طعامه .

وأحياناً كانت مخاطرة رفيق يعمل بالحديقة ليقترب متسللا من غرفة المأمور ليسمع حديثاً أو يلتقط نبأ يذيعه الراديو .

وأحياناً كانت مجهود شهر فى استدراج حارس حتى يعطى انطباعاً لما يدور فى الخارج ، كما كان عملا مذهلا وجباراً ، ذلك المجهود الذى بذله محررو المجلة فى الاتصال بمندوبيها فى العنابر الأخرى لنقل العدد وموضوعاته .

فقد كان يتم فى الفترة الوحيدة التى تسمح بذلك فترة العمل بالجبل . فرغم الإرهاب والعقاب الشديد اللذان لابد وأن يقعا على أى معتقل يشاهد وهو يحادث زميلا له ... رغم العمل والعدو والسياط والشوم ، كانت المهمة تتم ليتم أيضاً صدور « انتباه » أسبوعيا ولتكون المنبر للصمود .

... فى كلمة ، صدرت « انتباه » فى « الأوردى » وأسبوعياً ، لتقدم إفتتاحية سياسية فى كل عدد ، ومواضيع فى الفلسفة والإقتصاد والاجتماع والأدب ...

... فى كلمة تمت أيضاً لجان للتثقيف فى كل العنابر .. واستمع الرفاق لمحاضرات فى اللغات والرياضة والميكانيكا والذرة والتاريخ وحتى الأساليب الجديدة لتعمير الصحارى .

... فى كلمة كان يقفل باب العنبر والأجساد ما زالت مثخنة بالضربات ، ليبدأ رفيق يقدم مواد العدد أو رفيق يلقى محاضرة .

وأيضاً فى كلمة . . . كان رائعاً أن ينسى الرفاق يومهم ، وما قد يحمله غدهم ، ليتناقشوا فى « كانت » و « هيجل » و « ماركس » و « الأفغانى » و « ابن خلدون » و « بيكاسو » . وليسمعوا شعراً « لا ليوارد » و « بريفير » و « الشابى » ويعيشوا يستمعون لحياة « بيتهوفن » و « باخ » و (سارتر) و (لينين) و (أبو ذر الغفارى) .

.. واذكر الحلم فى عيون الرفاق وابتساماتهم وهم تحت البطاطين على الأرض متظاهرين بالنوم ، وأنا أحكيهم بتكليف من تحرير (انتباه) ولنصف ساعة كل ليلة قبل النوم ، قصة (الأحمر والأسود) لستاندال ، ثم (الدون يهدر بطيئاً) لشولوخوف ، وعلى مدى ثلاثة شهور ،

وأعتقد أنى لمحت فى أعينهم ومضة حزن وأنا أنتهى من قصة جوليان سوريل وكيف أعدم وكيف ماتت مدام دى رينال بعـد إعدامه بأيام حزنا عليه . فالشيوعيون فى النهاية وإن كانوا ثوريين إلا أنهم رومانتيـكيون ثوريون .

... مع رحيق الانسانية ، وهو الفـكر ، حلقنا ننتصر على الجلاد الذى أراد أن نفقد آدميتنا .

* * *

... وكمصريين ، كان لا بد أن نضحك . . وأن نضحك على جلادينا وعلى أنفسنا وعلى ظروفنا التعيسة . . فالنـكتة سلاح المقاومة .

وكان أن أسندت هذه المهمه لنبيل الهلالى !

وأعتقد أن أى شخص لم يعش تجربة أبو زعبل ، لا بد وأن يذهل لاختيار نبيل الهلالى لهذه المهمة . فنبيل ، فى الحياة العامة ، إنسان جاد تماما . لا أذكر أنى سمعته يوما يقهقه ، فهو يبتسم فقط . ولا استعيد لحظة حاول أن يفرض حديثاً على الآخرين ، فهو إنسان

متواضع مجامل هادىء . . وهو أيضاً مستمع للآخرين فى بساطة .

ولكن الجانب الآخر من نبيل ، ظهر فجأة فى الساعة الأولى التى وصلنا فيها « اللأوردى » وفى خضم « التشريفة » .

. . . فما زلت أذكر ونحن فى العنبر الذى ساقونا إليه عرايا مضروبين مهشمين مذهولين ، نستند إلى الحائط بظهورنا ونرقب فى فى غثيان وصدمة باب العنبر وهو ينفتح كل فترة ليدخل أحد الرفاق عاريا مضروبا يعدو تشيعه عصى الجلادين .

. . . ما زلت أذكر كيف نسينا المأساة فجأة ، عندما فتح الباب ليدخل نبيل شبه طائر ونظارته الطبية مهشمة تستند بمعجزة على أنفه ، وجسده العارى يسيل من الدماء التى لطخته .

. . . نسينا المأساة ، عندما توقف نبيل مفاجأ هو الآخر بعرينا ومنظرنا ، ليحملق فينا عدة ثوان ، ليتعرف علينا فى النهاية ، فينحنى من حيث توقف ، انحناءة طويلة جادة ويده اليمنى ترتفع نحو صدره كما كان يفعل فرسان العصور الوسطى ليقول فى هدوء شديد :

« تشرفنا » ! . .

ومنذ تلك اللحظة ونبيل يقدم صورة المناضل الساخر الصامد فى بطولة ، لتتحول هذه السخرية إلى قمتها الفكرية وهو يرأس تحرير المجلة الهوائية « دكتور شومة » .

... كانت مهمة « دكتور شومة » أن تستخلص الضحكة من اليأس ، والبسمة المضيئة من ظلمة الإرهاب ، والبسمة من المأساة .. وبها نجحت أسبوعا بعد أسبوع .

... أذكر أن افتتاحية العدد الأول فسرت لماذا كان اختيار الاسم « الدكتور شومة » . وكانت الافتتاحية تقول أنها ترشح حسن منير لنيل جائزة نوبل للسلام بصفته عالما فذا لأنه اكتشف دواء يجعل المريض يشفى والعليل بالربو يجرى كالحصان ، والرهل الجسد يركض كالغزال ، والدائخ يلف للتفتيش كالمكوك .. هذا الدواء اسمه « الشومة » التى استطاعت أن تصنع كل تلك المعجزات .

وأذكر مرة أخرى أن مجلة « انتباه » الجادة قدمت خبرا عن وصول عبود الرئيس السودانى حينذاك ، إلى القاهرة ، لتمر عدة أيام ويقدم نبيل عدده الأسبوعى ويعلق على الخبر ، بصورة

كاريكاتيرية تمثل المعتقلين فى عنبر (أ) ينحنون يملأون المقاطف بالحجارة من الجبل وعبود باسم الصداقة المصرية السودانية يمسك بشومة ويشير مهددا العنبر وهو يقول :

« عبوا . . . ده ! . .

. . . ولا أستطيع أن أتذكر كل تلك الأعداد الضاحكة التى جعلتنا نبتسم فى وجه الجلاد ساخرين ، فهذه الكلمات تكتب بعد أكثر من عشر سنين على حدوثها .

ولكن إذ أذكر « الدكتور شومة » فأنا أذكر نبيل . . . أذكره يهمس فى الظلام فنضحك لنتغلب على القهر . . . وأذكره صارخ فى المحكمة يعترض على محاميه عندما أخطأ فحاول أن ينال من الماركسية كمحاولة لتبرئة موكله ، ليقف نبيل يعلن فخره بالانتماء للفكر الماركسى ويطلب انسحاب محاميه وينال ثمانية أعوام أشغال شاقة جزاء على تحديه . . . وأذكره رفيقاً من الرفاق الذين قدموا المثل فى أيام أبو زعبل للانسان الذى يضحى دون حدود فى سبيل مبدئه ورفاقه .

... وهكذا ، عاشت « انقباه » ، و « الدكتور شومة » ، تقدمان التحدى فى وجه الإرهاب . عاشتا حتى اللحظة الأخيرة من لحظات التعذيب .

وأعتقد أنهما سبب رئيسى فى إفشال هدف المباحث العامة .

فحولهما تجمع الرفاق يقاومون حتى موت العاصفه ...

— ٣ —

هناك حوادث تظل عالقة بالفكر لا تريد أن تغادره ... بالذاكرة تنبض بالحياة وتقاوم الفناء والنسيان .

وفى ١٦ فبراير ١٩٦٠ ، فى يوم الأربعاء الدامى بحضن جبل أبو زعبل ، خط بعض الرجال ، مثل هذه الحوادث .

* * *

ففى ذلك اليوم وبعد أن رفضنا فى الصباح أن نغنى كما طلب حسن منير وشاء ، قادونا للجبل ونحن نعلم أن هولا ينتظرنا وانتقاما داميا يكمن لينشب أنيابه بنا .

وتأكدت ظنوننا عندما اقتربنا من الجبل لنرى صفوفا طويلة من الحرس الخارجى للبمان تحمل الشوم والكرابيج . . قد دخلت الجبل ولا تنتظر سوى الإشارة .

فى ذلك اليوم لم يكن فيه أمامنا سوى أحد أمرين ، إما الإنهيار .. أو الصمود . إما أن نستسلم ونتحمل نتائج الإستسلام ، أو نقاوم حتى النفس الأخير .

وفى ذلك اليوم خط الشيوعيون المصريون صفحة مشرفة .

كما كان جزءاً من هذه الصفحة ، وسبباً لها ، ... العديد من البطولات الفردية ، التى تمت مفاجأة ولامعة كالشهب تتوهج فى ظلال ليل مدلهم . ولتكون الشحنات والمثل ليقاوم الجميع .

.. كان رفض إسماعيل صبرى أن يغنى وتحديه لحسن منير ، وحضور بديهته بالرفض والرد الحاسم ، دون إتفاق سابق بيننا ، وصموده وهو يتلقى جرعة العذاب كاملة منذ الصباح حتى المساء . الصباح .. فى «الأوردى» والشوم تنهال عليه بشج رأسه، واليوم كله حتى الغروب .. فى الجبل . والمساء من جديد وقد فقد حسن منير عقله وقد رأى الضحية تقاوم صامتة لا تنهار .

.. ذلك كله كان مثلا للنضال وللاخرين بالمقاومة .

وكان تحدى محمد سيد أحمد يومها للارهاب ، عندما نهض من

حيث انطرحنا نتلقى التعذيب والضرب فى فناء « الأوردى » وقبل التوجه للجبل ، ليخاطب إسماعيل صبرى ليسأله عن حاله ويبلغه بهذه الجملة البسيطة عما نحسه نحوه من تقدير ومشاركة . وليقف ثوانى يوجه هـذه الجملة وقد تحولت كل الهراوات صوبه وقد جفت من تحديه . مثل للنضال وللاخرين بالمقاومة .

وكان صمود سعد زهران عندما رفض الاذعان ليلقوه أرضا وينهالوا على قدمه الوحيدة بالضربات حتى يعجزوه عن الحركة .. ورغم ذلك يستمر فى الرفض . مثل للنضال وللاخرين بالمقاومة .

وكان الموقف التلقائى لبعض الرفاق بعد ذلك فى الجبل وهم يختارون الموت والمحنة ليجنبوا زملاءهم ، موقفا بطوليا ، كان من المستحيل بعده أن ينهار المعتقلون ..

* * *

ففى ذلك اليوم اختفت المقطوعية والروتين العادى ، ليدخل الحرس الخارجى الذى سميناه بعدها « المكسوس » لضراوته وبدائيته .. وعلى رأسهم حسن منير وكل ضباطه يمتطون جيادا

يقودون الحملة المسعورة ، ويبتون بتواجدهم شعلة الارهاب تتقد .

وكان طبيعيـاً فى ذلك اليوم ، أن يتركز الارهاب أساساً على عنبر (أ) الذى بدأ التمرد والذى رفض الغناء ، حتى يـكون أمثولة لباقى المعتقـل . كما كان طبيعيا أن يتركز الارهاب بالذات على من ظنهم حسن منير وأشارت إليهم المباحث العامة بأنهم الزعماء .

ولذلك وما أن مرت دقائق معدودة فى الجبل ، من يوم مازال يمتد طويلا ، حتى كان كثر من واحد منا قد سقط مهشما .

فقـد رسمت الخطة فى ذلك اليوم ، على أساس أن تعمـل بقية العنابر فى تقطيع الأحجار . بينما فرض على عنبرنا أن ينقل جبلا من الرمال والأحجـار من بداية الجبل حتى نهايتـه . ونفذت الخطة ، لنملأ القلقان تحت فرقة من السجانة تتولى ضربنـا ، ثم نعدو بالقلقان المليئة بين صفوف « المـكسوس » الضاربة ، لنفرغها فى نهاية الجبل ونعود عدوا من جديد لنبدأ العملية من أولها .

وكان أخطر مافى هذه الخطة ، تلك المسافة التى علينا أن نعدوها بين شوم « المـكسوس » غير المدرب على الضرب ، والذى يهوى

بعصيه أيا كان ، ممـا يزيد الإحتمالات فى أن يسقط واحد منا قتيلا فى أى لحظة .

فضربة واحدة على الرأس من شومة يبلغ سمكها عدة سنتيمترات، وتهوى بها يد لا تفرق بين التعذيب والقتـــــل تكفى لأن تحدث الـكارثة .

كما أن العدو المستمر بتلك الفلقان المليئة واساعات النهار كلهـا ، كان يعنى أن أكثر من شخص لا بد وأن ينهار .. خصوصا أولئك الذين يفتقدون المقاومة الصحية اللازمة .

ولذلك ، وما أن مرت عدة دقائق ، حتى كنا نضع خطة مضادة، مضمونها أن نتبادل المخاطر ونتقاسمها ..

.. قسمنا العمل بيننـا ، مجموعة تحفر وتملأ الفلقـان وبذلك تتفادى المنطقة الخطرة المنهكة ، ولا تتحمـل سوى شوم السجـانة الذين فضلوا التواجد فى نهاية الجبل ، تاركين « للهكسوس » مهمة الضرب فى وسـط الجبل ، .. ومجموعة أخرى تتولى حمـل الفلقان والعدو ومجابهة العذاب الأكبر ..

... حتى يتعثر رفيق أو يسقط ، فيستبدل بآخر من المجموعة الأولى وهكذا ..

... تلخصت الخطة فى أن كل رفيق من حقه أن يتحمـــــل العذاب الأصغر فترة زمنية ، حتى يتمالك أنفاسه، ليعاود العدو ومجابهة العذاب الأكبر من جديد .

ولم تـكن هناك استثناءات .

فما كان إحتمال القتل أو العجز أو الـكسر بعزيز على أى واحد منا . سواء أكان من القادة أم لا .. سواء أكان مثقفا أم عاملا أم فلاحا .. مرفها فى حياته الخارجية أو شديد المراس متمرسا على المجهود العضلى قبل أن يعتقل :

فالشيوعية تؤمن بأن الإنسان أثمن رأسمال .. لا فروق طبقية أو موروثة أو كهانة غيبية أو إجتماعية .

ولـكن الذى حدث ، وبعد فترة عـكس ما تم الاتفـــــاق عليه تماما .

فمجأة ، ودون إتفاق مسبق ، تخلى المديدون عن حقهم فى الراحة ليواجهوا الضرب المركز و « المكسوس » طيلة اليوم ، تاركين لزملاء آخرين أحق بهذه الراحة نتيجة لظروفهم الصحية أو العصبية، حقهم ومكانهم .

وهكذا كان التصرف التلقائى لمريدى العامل السكندرى ، والشبل إسماعيل ابن بنى سويف ، ولمحمود المستكاوى المهندس ، وللخليل الآس النوبى ابن أسوان ، ولسيد شعراوى الطالب ، ولأمين شرف عامل العنابر ، ولحسين طلعت الخبير الزراعى ، ولنبيل الهلالى المحامى ، وليوسف درويش المحامى والذى تعدى الخمسين من عمره ، ولعبد المنعم شتلا الطنطاوى ، ولعوض الباز العامل الشبراوى ، ولسعد رحمى المحترف الثورى .

بدون إتفاق وبتضحية صامتة ، لا يشهد عليهما سوى جبال داكنة وصخور سوداء وأرض متربة ملوثة بالدماء تقدم الرجال يخاطرون ليحموا زملاءهم .

* * *

... فى ١٦ فبراير ١٩٦٠ ، يوم الأربعاء الدامى ، وعند عودتنا

من الجبل كان نصف العنبر عنبر (أ) ، يعود اما محمولا على سواعد رفاق آخرين ، أو يتحامل يعرج ويتساند .

وبعد وصولنا من الجبل ضربنا من جديد وطويلا .. لندخل العنبر نضرب من جديد ، ثم يقفل الباب لننطرح على الأسفلت نلعق جراحنا و نلتقط أنفاسنا .

وليلتها ضحكنا طويلا .

فعندما هبط الليل همس لنا رفيق من عنبر مجاور يبلغنا تحيات العنابر الأخرى ويحكى أن الدكتور لويس عوض الذى تحمل اليوم بشجاعة فذة . كان أول سؤال وجهه لزملائه عند وصوله للعنبر سؤالا فلسفيا .

قال لويس ، ونظارته المهشمة المربوطة بفتلة بأذنه علائم الجسد والأستاذية تعلو وجهه مخاطبا عنبره :

... لقد اكتشفت اليوم أن مصر لا تحترم « الهيبيس كورليس » ! .

وكان لويس يقصد ذلك المبــدأ الرومانى المقرر فى القوانين والذى ينص على أن جسد الإنسان مقدس لا يجوز المساس به .

... ضحكنا .. ليزداد ضحكنا وعبد العظيم أنيس يعلق :

« ... إن مصر تؤمن بالهكسوس كورليس » .

... كان هذا هو نوع معدن رفاقى ... وكانت تلك صلابتهم .

— ٤ —

. . إن كان « أوردى » أبو زعبل قد خلا من دفء الحياة ، وإن كان زبانيته أرادوا منه ألا يحوى إلا كل شىء بشع معــاد للحياة .

فالإنسان ، ذلك الذى عاشه ، عاريا يرتجف من البرد ويتضور الجوع ويتحمل فى صمت ويتعذب متخبطاً فى جروحه ودمائه وألم محنته . ذلك الإنسان الذى أرادوا سحق فـكره بسحق عظامه ، وافناء عقيدته . بهتك حرمة جسده وكرامته . ذلك الإنسان استطاع أن يخلق ركنا دافئاً من الحياة .

هذا الركن اسمه « الصداقة » .. اسمه ، المشاركة الانسانية . .
اسمه تلك اللغة التى تنبع من القلب صادقة ، صدق الموت الذى يجابهه الانسان ، والحياة التى يتشبث بها .

. . . كنا فى الحياة . وحتى فى السجون الأخرى وقبل أن نحل فى الأوردى ، مجرد أفراد جمعتهم فكرة أو عقيدة وأحياناً محنة .

ولكن « الأوردى » بمأساته ، فتح الباب على مصراعيه لكى تلتقى النفوس ، وتلتحم التحاماً فريداً لقد كان أحد أساليب الصمود ... وإحدى دعائمه الأساسية ، ذلك الركن الدافىء الذى صنعناه ونحن نلتقى نتحدث . . . أو نرقب . . أو نتصارع ...

وكما أن الحياة تفرض على الإنسان فكره . كما أن الواقع هو مادة العقل وتفكيره .

فقد كان واقعنا . . . وبالذات كل موقف بطولى لرفيق . .
هو ركننا الدافىء الذى نتوقف عنده نتزود لمحنة يوم جديد .

وأعتقد أن قصة شهدى عطية الشافعى التى لم تستغرق الساعة من تاريخ أبو زعبل . كانت هذا الركن الدافىء .

ليس فقط لصمودنا واستمراره . وإنما أيضاً لاستمرارنا فى الحياة ذاتها .

فهى قصة شهيد وبطل !

* * *

... بعد أن حوكمنا أمام المجلس العسكرى العالى الذى يرأسه هلال عبد الله هلال ... وبعد أن انتهت محاكمتنا لنرحل إلى أبو زعبل . وفى شهر مايو تقريباً ، بدأ نفس المجلس ينظر القضية التالية والمكونة من نفس عـدد المتهمين تقريباً — حوالى الستين متهما — والتى كان شهدى هو المتهم الأول فيها .

... وكانت مهمة شهدى فى تلك المحاكمة التى قرر فيها مع زملائه أن يقوم هو بالدفاع السياسى مهمة شاقة .

فالأزمة بين اليسار والسلطة السياسية كانت قد بلغت قمتها ، يزيد من اشتعالها نباء ما يحدث فى أبو زعبل ومن استشهد .

ويزيد من أهميتها اهتمام الرأى العالمى وقد تسربت الأنباء واحتد الصراع السياسى ويزيد من ضراوتها وخطورتها أن على شهدى

لم تقع فقط مهمة توضيح أن الشيوعيين المصريين يعتبرون حكومة عبد الناصر حكومة وطنية وأنهم حلفاء لها . . . وإنما أيضاً أن لهم نقداً على تصرفاتها غير الديمقراطية . .

وأن استمرار الأزمة وتصاعدها وتعميقها لن تفيد منه سوى فلول الرجعية وتلك الطبقة الجديدة الفاسدة الجشعة التي تريد أن توقف التحول الاشتراكي وتدمره . . .

إن استمرار الأزمة لن يفيد منه سوى أعداء الوطنية وعملاء الاستعمار .

. . . من جديد ، وكما يحدث في كل محاكمة شيوعية هامة ، وأيا كانت الظروف والقوى والحكومات : كان على أي رفيق أن يتصدى ويتحمل ما تحمله ديمتروف يوما بعد حريق الريشتاغ .

ذلك ما شهده العالم في كل بقعة وقف فيها شيوعي أمام قضاته يشرح ويحذر ويتنبأ ، وماشهدته قاعة المجلس العسكري بالأسكندرية ، عندما وقف شهدي يعلن انتماءه للحزب الشيوعي ويدلي باسم هذا الانتماء وثيقة سياسية حول ضرورة الوحدة الوطنية .

ولم يكن اختيار شهدي لهذه المهمة محض صدفة ودون سبب :

فإذا كان فؤاد مرسى أحد مؤسسى الحركة الشيوعية . . واسماعيل صبرى وسعد زهران وحلمى ياسين وعبد العظيم أنيس بعض قادتها المعروفين دوليا .

فشهدى رئيس تحرير مجلة الجماهير فى الأربعينات التى قادت الصراع ضد فاروق والرجعية والاستعمار . . وشهدى أحد رواد الماركسية الأول ، وقائد اللجنة الوطنية للطلبة والعمال التى أسقطت حكم النقراشى وتصدت اصدق ورفعت شعار الكفاح المسلح ضد لانجليز . .

شهدى المفكر الماركسى ، وهذه بعض صفات نضاله ، كان من الطبيعى والضرورى أيضاً أن يقدم هذا الدفاع السياسى والتاريخى .

ولذلك لم يكن غريباً وبعد أن قدمه ، وتقاعست المحكمة عن حماية المتهمين المسئولة هى عنهم وعن حياتهم وتركتهم فى مخلب المباحث المنتقم .

أن تحول المباحث أفراد القضية « اللاوردى » للانتقام منهم ، وأن تصدر أوامرها بالتركيز على شهدى بالذات .

وبالفعل ، فى ذلك اليوم المشئوم من أواخر شهر مايو ، حضرت تشريفة جديدة أشرف عليها همت والحلوانى ومندبون من المباحث العامة .

ونفذها حسن منير وضباطه وزبانيته .

وفى ذلك اليوم قضى شهدى نحبه قتيلا .

* * *

. . . منذ فجر ذلك اليوم ، كنا بدأنا نعلم أن رفاقا جـددا سوف يصلون « للأوردى » ، وأن العدد كبير نسبيا .

أدركنا من الحشود التى سمعنا حركتها خارج المعتقل ، ومن الغاء نزولنا للجبل ، ومن زيادة درجة الإرهاب فجأة داخـل « الأوردى » .

هكذا أدركنا لنجلس على أسفلت العنبر وظهورنا للحائط ، صامتين واجمين مثقلى القلوب ننتظر أصوات التشريفة المفجعة كما تعودنا سماعها مرارا .

ولكن الظروف شاءت فى ذلك اليوم ، أن يشهد واحد منا ـ وبعينه ما حدث منذ البداية حتى النهاية .

وبالتالى ليشهد مقتل شهدى ، ويرى قاتله .

* * *

. . . فعند الفجر أخرج أحد السجانة رفيقنا هريدى العامل بجمرك الاسكندرية وزميلنا فى عنبر « أ » ليقوم بتنظيف فناء المعتقل ورشه بالمياه . وعندما بدأت التشريفة لم يجد الحارس وقد استدعى فجأة للاشتراك فيها ، سوى أن يتخلص من هريدى بوضعه فى غرفة خالية ملحقة بحمام المعتقل وإغلاق بابها عليه .

. . . وكانت هذه الغرفة بجوار باب « الأوردى » الخارجى ـ كما كانت نافذتها المسورة بالقضبان الحديدية تطل على فناء المعتقل .

ولذلك وعندما بدأت التشريفة ، كان هريدى يتعلق بالقضبان ـ يرفع جسده بساعديه حتى يصل ببصره إلى الخارج وليكون العين التى شهدت ما حدث .

وكانت قصة رغم بساطتها مأساة بشعة .

وكانت على النحو التالى . . .

... حضر التشريفة همت والحلواني وبعض أفراد بملابس مدنية لا يعرفهم هريدي . واحد فقط تعرف عليه هريدي وكان ضابطا بمصلحة السجون ومسئولا عن العلاقات العامة بها ويسمى « طه ».

وأشرف كالعادة على تنفيذ التشريفة حسن منير وضباطه الثلاثة والصول مطاوع .

وبدأت التشريفة بنفس الطريقة المعتادة : نزول المعتقلين من السيارات ، اثنين . . اثنين . . ، لتبدأ صفوف « العسكر » في ضربهم والضباط على خيولهم في تعقبهم واجبارهم على العدو .

... ثم اجبار المعتقلين على التجرد من ملابسهم والوقوف عرايا أمام همت ورفاقه الذين يجلسون في شرفة المكتب يتفرجون ... ثم ضربهم من جديد وهم عرايا وحلق شعر رؤوسهم وعوراتهم وتعقبهم بالعصى والشوم حتى العنبر الذى خصص لهم .

وكان همت هو الذى يشرف بنفسه على العملية وحتى على أدق تفصيلاتها . فهو الذى مثلا أشار باستثناء اثنين من المعتقلين من الضرب الشديد ، وكلاهما كما عرفنا فيما بعد من عائلات تمت بصلة القربى البعيدة أو المعرفة بهمت .

كما كان هو الذى أشار بتركيز الضرب على البعض الآخر وبالذات على شهدى عطية الشافعى . فعندما وصل شهدى أمام الشرفة ، وبعد أن أجبر على خلع ملابسه ، أحاط به الضباط يضربونه ...

وعندما أمر حسن منير بادخاله إلى فناء « الأوردى » أشار همت لعبد اللطيف رشدى الذى تولى ضربه بنفسه ومعه الصول مطاوع والشاويش عبد السلام .

وبينما كان بقية المعتقلين يساقون للعنبر ، أمر همت باستثناء شهدى ليتركز الضرب عليه ولا يتوقف حتى يقول « أنا مرة » .

وشهد هريدى ما حدث فى تلك اللحظات بالتفصيل . فلم يكن شهدى ساعتها هو وجلادوه إلا على بعد امتار قليلة لا تتعدى الأربعة منه .

شهد كيف استمر الضرب فترة ، ليسقط شهدى راكعا على ركبتيه من وطأته . وبينما استمر الضرب ينهال على ظهره ومنكبيه ورأسه كان عبد اللطيف رشدى يصرخ فى شهدى قائلا :

ـــ قل أنا مرة !

وكان شدى يتلقى الضربات صامتا لا يفتح فمه بصرخة أو آهة واحدة .

وفجأة انطرح شهدى على الأرض دون حراك، استمر ضربات أخرى حتى يتحرك أو ينهض .. ثم ومشهد الجسد عاريا هامدا دون حراك ، فقد بدأ عبد اللطيف رشدى فى تفحصه ليأمر بإيقاف الضرب .

بعدها شاهد هريدى طبيب السجن « كمال » يحضر لفحص الجسد من جديد ثم ينصرف ، ليلحظ فجأة أن جوا غير عادى يسود « التشريفة » .

فقد لمح بقية المعتقلين ممن لم يعيشوا « التشريفة » بعد ، يضربون بسرعة وتعجل ليساقوا فى عجلة وتلهف إلى عنبر « ٢ » ، بينما انسحب همت وضيوفه لتبتعد بهم السيارات مسرعة .

... بعدها أيضا ظل « هريدى » فى نفس الوضع .. اليدان متشبثتان بالقضبان والعين تنظر . ووجدانه كله قد أدرك ما قد حدث .

... ظل ينظر إلى جسد شهدى حيث استلقى على فنـــاء « الأوردى » عاريا هامدا .

... ظل يتأمل الرفيق الذى ودع الحياة بكل ما فى البطولة من بساطة ومن روعة أيضا .

... ظـــل بنظره وتأمله حتى لم يعد يقدر والدموع تغرق عينيه .

... بعدها هبط يبكى فترة ، ثم تعلق بالقضبان من جديد يبلغ العنابر بما قد حدث .

— ٥ —

فى عنبرنا ، كما فى كل العنابر ، وفى نفس الوقت تقريبا ، وبعد وفاة شهدى بدقائق ، كان نبأ اشتشهاده يعلن فى كل عنبر ، وقف أحد الرفاق يعلن فى هدوء وبكلمات دقيقة ، النبأ .

فى عنبرنا ، وقف سعد زهران على قدمه الواحدة ، يستند إلى الجدار بيده ، يقول أن شهدى سقط شهيداً منذ دقائق تحت ضربات

الإرهاب .. وأنه مات بطلا يصمد حتى أنفاسه الأخيرة .

ثم اجتمع العنبر يبحث فى القرار الواجب اتخاذه .

ولأول مرة منذ بداية « الأوردى » وعملية أبو زعبل صدر القرار بالتمرد الصريح والمقاومة المباشرة .

* * *

... ولم يكن إتخاذ القرار سهلا . فقد كان يعنى انفجارا كبيرا لا يمكن أن يتكهن أحد بنتائجه ... وضحايا لا يمكن أن يتكهن بعددهم .

وكان يعنى أيضا أننا نستبدل المقاومة الصريحة بذلك الأسلوب الذى استعملناه خلال الشهور الماضية والذى انبنى أساساً على المقاومة السلبية الصامتة .

ببساطة كان يعنى ، رفض تنفيذ كل أشكال التعذيب والإرهاب إبتداء من لف للتفتيش ، حتى العمـل فى الجبل .. وإبلاغ الإدارة بأننا نطلب التحقيق فى مقتل شهدى ونحتج عليه .

بعد القرار ، أبلغ ما قد اتفق عليه للعنابر الأخرى لتنفيذه ، وبدأ عنبر « أ » فى تنفيذ أول خطوة وكانت ابلاغ الإدارة برفضنا أى شكل للتعذيب والمطالبة بالتحقيق فى مقتل شهدى .

وإبتدأ التنفيذ عندما طرق باب العنبر شبل إسماعيل وحسين طلعت وأنا ، ليحضر أحد الحراس فنطلب منه مقابلة حسن منير .

* * *

... واليوم وهذا التاريخ قد مضى عليه سنوات عديدة ، . . . اليوم وأبو زعبل وما حدث فيه مجرد ذكرى سيئة فى النفوس ، فلست أريد أن أحكم على قرار المقاومة السلبية والصمود الصامت الذى ساد أيام « الأوردى » حتى مقتل شهدى كتعبير عن رأى الأغلبية .

... ربما كان هناك ما يبرره ...

ذلك التبرير الذى ضم فيما ضم ، ضرورة تعبئة المعتقلين كلهم للمقاومة السافرة قبل أن تبدأ . . وضرورة كسر حدة الارهاب وخصوصاً فى نفوس السجانة قبل أى خطوة عنيفة . . . وضرورة التأكد أولا أن « الأوردى » ليس معتقلا للابادة الجماعية قبل أن نبدأ فى تمرد صريح .

. . . ربما كان هناك ما يبرره . . . وربما أيضاً كنا قد حصلنا على بعض النتائج الإيجابية خصوصاً بين السجانة تبين لهم من واقع ما يشهدون أننا لسنا كما يصف حسن منير. أننا لسنا ملاحدة أو يهوداً أو خونة .

فهم مثلا شهدوا بعيونهم كيف أن معتقل أبو زعبل جميعه ورغم الظروف البشعة ، صام رمضان كاملا . فرمضان الذى أتى ذلك العام فى الصيف ، لم يمنع الرفاق أن يعملوا فى الجبل ويتلقوا التعذيب صائمين . . كل العنابر كانت تذهب للجبل وقد تركت فى «الأوردى» جرادل المياه لتعمل فى جهنم البازات وتحت سياط التعذيب من الصباح حتى الغروب ودون قطرة ماء .

وهم مثلا شهدوا بعيونهم وسمعوا بآذانهم ما كنا نقوله فى العنابر حتى يسمعوه . وعلموا أننا كما نقف ضد الدكتاتورية والرجعية، فنحن مع الوطنية ومن أجل الاشتراكية

وهم أخيراً كما شهدوا وسمعوا . . . لابد اهتزوا وترددوا وهم يرقبون صمودنا الصامت وإصرارنا .

. . . لا شك كانت هناك بعض النتائج الإيجابية.. فى رمضان

كان السجانة والحراس ينفذون أوامر الضرب بشكلية وعلى مضض . وبمرور الوقت كانوا يكتشفون أننا لسنا مجرد « نمر » ملصقة على ملابس السجين . وإنما أسماء لها كيان ووجود فى نفس الوطن الذى يعيشون فيه .

ولكن ذلك كله لم يكن ولم يمنع أن الأرهاب أستمر وأن دماء شريفة ذكية وكثيرة سالت فى الأوردى وأن قبل شهدى سقط شهداء . ذلك لا يمنع أن قرار المقاومة السلبية لابد أن يحكم عليه التاريخ فى يوم ما .

. . . أيا كان الأمر، فعندما اتخذ القرار أخيراً بالمقاومة السافرة، كان يلقى إجماعا من الرفاق كلهم .

فببساطة ، كان الاستمرار فى الصمت مستحيلا .

وأيا كانت النتائج التى يمكن أن تترتب على القرار بالمقاومة ، كإطلاق الرصاص فى المليان . . أو إبادة جماعية بحجة التمرد .

فقد كانت خطوة المقاومة ضرورية . . ضرورة الحياة ذاتها .

. . . طلبنا من السجان مقابلة حسن منير ونحن نتوقع إرهاباً فردياً وجماعياً . . . ولكن شيئاً لم يحدث . وأعدنا الطلب دون نتيجة .

وعندما خرجنا للطابور كان المعتقل كله قد بدأ يعلن بداية تمرده . وكان شكل هذا التمهيد والذى ينتظر الانفجار ، رفض تنفيذ الحركات الرياضية والنزول للجبل .

ولكن الإدارة اختفت ، ليدخلنا الحراس العنابر دون ضربة واحدة .

وبدل الجبل ، اختفى حسن منير وضباطه لنسجن فى العنابر دون تعذيب .

وكان التكهن بالطبع أن شيئاً قد حدث . وصدق التوقع . فلم تمر ساعات ، حتى كان « الأوردى » يشهد حوادث مثيرة متتابعة .

— ٧ —

. . . لم تمر ساعات على مقتل شهدى حتى كانت الحوادث

تتوالى بسرعة مذهلة . فجأة وبعد ركود طويل وأذن لا تسمع وعين تتجاهل ، تحركت السلطة السياسية تتدخل .

فجأة نشر الأهرام . . نعيا فى صفحة الوفيات لشهدى مع أبيات من الشعر تشير إلى أن وفاته كانت استشهاداً وقتلا .

وفجأة أرسل عبد الناصر من بريونى أمراً بالتحقيق فى قتل شهدى ليفاجأ «الأوردى» إدارة ومعتقلين وجلادين وضحايا ، بالنيابة العامة تصل وتبدأ فى التحقيق .

وما زال بعض الرفاق يقولون ، أن الظروف السياسية وحدها لم تكن السبب . وأن موجة العداء للشيوعية التى مرت لم تفتح بدورها وحدة الباب لذلك التغيير الذى حدث فى الأوردى .

. . . وأن بالإضافة إلى هذه الظروف واكتشاف الحكومة لتآمر اليمين والرجعية وإحساسها بضرورة الوحدة الوطنية ضد ذلك اليمين وتلك الرجعية وتحفز الاستعمار وعملائه .

. . . بالإضافة إلى كل ذلك ، فإن إحساس المباحث بأن الموقف قد بدأ يفلت من « الأوردى » وأن إنفجاراً دموياً على وشك

الوقوع . . . ويقع فى ظروف غير مواتية .

. . . وذلك أيضاً لعب دوره فيما شهده « الأوردى » من تغيرات .

***

أياكان الأمر ، ففى تلك اللحظة لم نكن نعلم ما يدور بالخارج، وكان قرارنا بالمقاومة ، قراراً نابعاً بضرورة هذه المقاومة السافرة .

وليكن ما يكون ! . .

وأيا كان الأمر ، فقبل أن تبدأ تلك المقاومة السافرة ويحدث الصدام المنتظر ، كانت النيابة قد حضرت وابتدأ التحقيق .

وكان تحقيقاً كاملا وتفصيليا .

وللنيابة تقدم هريدى كشاهد عيان يحكى مقتل شهدى ويحدد قاتله . ومن عنبرنا كما من كل العنابر تقدم مندوبون يشهدون بما حدث فى الأوردى ويحكون القصة البشعة بتفصيلاتها .

وللنيابة أيضاً استدعى الضباط لينفوا علمهم بأى شىء . وليحضر

حسن منير وقد حطم ذراعه يدعى أن شهدى حاول الاعتداء عليه .

ثم وببساطة شديدة ، توقف التعـذيب وتوقف التحقيق أيضـاً !

. . . توقفت طوابير الرياضة والتعذيب فى الجبل ولف للتفتيش وكل اختراعات المصيلحى وهمت وحسن منير .

وسمح بالزيارات والعلاج الطبى ، وبدأ التحضير فى نقلنـا لسجون عادية .

. . . وأيضاً توقف التحقيق وصمتت النيابة ووضعت الملفات فى المخازن وأسدل الستار على ما تم وكأنه ما حدث .

ببساطة شديدة خنق الحق واجهضت الحقيقة وأوقفت المسألة .

فمقابل الدماء التى سالت والأرواح التى استشهدت ، أحيـــل إسماعيل همت للمعاش ونقل حسن منير لمصلحة الحدود وعبداللطيف رشدى لبنى سويف .

وبقى بقية الجلادين فى وظائفهم !

* * *

وكان القدر أكثر عدالة . فبعد شهور توفى قاتل محمد عثمان بذبحة قلبية . وقتل عبد اللطيف رشدى ، وتوفى الصول مطاوع مشلولا . وقتل ابن الشاويش عبد السلام ووحيده فى حادث سيارة.

. . . واذكر عندما رأينا الشاويش عبد السلام يبكى لوفاة أبيه ، أننا جمعنا مبلغاً وسلمناه له كمصاريف للجنازة ، وأذكر أيضاً عندما صدر قرار العفو الشامل من الرئيس عبد الناصر أن المصيلحى ثار ضد هذا القرار للحد الذى نقل فيه بعيداً عن المباحث العامة .

ولكنه قبل أن ينقل دبر استفزازاً للرفاق فى الواحات وهم يتأهبون ليطلق الرصاص وليسقط الرفيق إسحاق شهيداً .

— ٧ —

. . . عندما توقف التعذيب ، سقط العديدون منا مرضى . فالجهاز العصبي الذى تحمل الكثير من أجل البقاء عندما انتهت مهمته استرخى ، لتظهر الأمراض .

. . . عديدون منا ، ظهرت عليهم أمراض السل والأنيميا الحادة والقلب والحميات والأمراض الجلدية وكان من نصيبي ألتهاب كبدي حاد نقلت بسببه إلى مستشفى سجن مصر ثم القصر العيني لأبقى فيه معتقلا حتى الإفراج عني بعد ذلك بسنتين .

وذات يوم شاهد زميلي حسن عثمان شقيق الشهيد محمد عثمان والمعتقل معي ، حسن منير يدخل المستشفى ذات يوم .

كنا لحظتهـــا نجلس على باب العنبر ومعنا ضابط الحراسة . وكان ضابط بوليس شاب منتدب من أحد أقسام البوليس لحراستنا .

. . . رأينا حسن منير يتوقف ، ثم يقترب من الضابط ليشير إلينا ويقول :

— هؤلاء معتقلون فى منتهى الخطورة . من الواجب حبسهم فى العنبر وعدم السماح لهم بمثل هذه الحرية أو معاملتهم هذه المعاملة .

وأنهى المناقشة يومها حسن عثمان عندما فقد السيطرة على أعصابه فهجم صوب حسن منير ليفر الآخر جاريا فى طرقات المستشفى .

. . . بعدها تقدم حسن منير بشكوى للمباحث العامة يتهم فيها ضابط المنبر أنه يصادق المعتقلين الشيوعيين ويعاملهم معاملة غير رسمية .

ولكن الحادث مر دون اهتمام . فأيام حسن منير كانت قد انتهت وإن لم يكن هو قد أدرك ذلك بعد .

ولكن فأنا أحكى هذه القصة لأحاول أن أقول شيئين :

. . . أن القاتل يعيش بحقده حتى النهاية . وأن الجلاد متحفز حتى آخر نفس .

. . . وأن أيضاً ، إلى جانب هذا الحقد والتحفز، يعيش الخوف. فمن قتل وأهدر الدم وعذب وضرب وجلد . .

مثل هذا الشخص لابد ويخاف . فهناك دائماً لحظة طال الأمد أو بعد ، لابد وأن يحل فيها القصاص .

والقصاص ليس انتقاما شخصيا . وإنما إدانة وعقاب شعبي .

فمن عاش تجربة « الأوردى » . . . من مات هناك أو تهشم

أو عذب . . . هو فى النهاية مصرى وابن الشعب المصرى .

والشعوب كما تصنع تاريخها ، لا تنسى من أساء إليها .

ومن أجل هذا أولا ، كتبت هذه القصة وكما حدثت .

تمت بحمد الله

الفهرس

رقم الايداع ١٨٨٥ / ٧٧
الترقيم الدولى ٣ ــ ١٨ ــ ٧٢١٠ ــ ٩٧٧ ــ ISBN

دار مأمون للطباعة

شارع خيرت درب البندق : ت ٢١٢١٨

دار الثقافة الجديدة

الثمن ٤٠ قرشاً